يظل الرجل طفلاً حتى تموت أمه

دمعة على قبر أمي

أ.د/ صالح بن حسين العايد

بسم الله الرحمن الرحيم

ح دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، 1432هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العايد، صالح حسين.
يظل الرجل طفلاً حتى تموت أمه/ صالح حسين العايد ط12
الرياض، 1432هـ
182 صفحة، 14×20
ردمك: 3-9-9588-9960
1- النثر العربي – مجموعات أ. العنوان
ديوي 819.008

رقم الإيداع 1432/393هـ
ردمك: 3-9-9588-9960

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية عشرة
1432هـ/2011م

دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية ص.ب: 27261 الرياض 11417
هاتف: 4914776-4968994 فاكس: 4453203
E-mail; eshbelia@hotmail.com.

سَـمُوْماً غـَـدًا بَعْـدَ الطَّـرَاوَةِ وَالـبَرْدِ

إهْدَاء

- إلى كُلِّ أمٍّ إكْرَاماً لأمّيْ رَحِمَهَا اللهُ:

«وَلأَجْلِ عَيْنٍ أَلْفُ عَيْنٍ تُكْرَمُ»[1]

- إلى كُلِّ مَنْ لَهُ أمٌّ كَأمّيْ، وَلَهُ قَلْبٌ كَقَلْبِيْ.
- إلى مَنْ فَقَدَ مِثْلَ مَنْ فَقَدْتُ، وَحَزِنَ مِثْلَمَا حَزِنْتُ.

[إهداءٌ خاص]

- إلى مَنْ فَقَدَ مَنْ فَقَدْتُ، وَحَزِنَ مِثْلَمَا حَزِنْتُ، إلى إخْوَتِيْ ؛
أبي سامي، وأبي عبدالله، وأبي نَوّافٍ، وأبي عبدالرحمن.
- وإلى شقيقاتي؛
أمّ رَامِيْ، وأمّ صُهَيْب، وأمّ مُهَنَّد.

أُهْدِيْكُمْ

(دَمْعَتِيْ عَلَى قَبْرِ أُمِّيْ)

مَا قَبْلَ الـمُقَدِّمَةِ

هَذَا الكِتَـابُ رَسَمْتُ حُرُوْفَـهَ وَكَلِمَاتِهِ وَجُمَلَهُ بِـمِدَادٍ مِنْ قَـلْبِـيْ قَبْلَ مِدَادِ قَلَمِيْ، وَمَهَرْتُهُ بِـالعَبَرَاتِ قَبْلَ العِبَارَاتِ؛ فَهُوَ صَدًى لِفَقْدِ أَحَبِّ الأَحْبَابِ...

وَهَلْ مِنْ مُصِيْبَةٍ - سِوَى فَقْدِ الدِيْنِ - أَعْظَمُ مِنَ الـمَوْتِ؟

وَهَلْ مِنْ مَوْتٍ أَشَدُّ إيْلاماً مِنْ مَوْتِ الأُمِّ؟

وَهَلْ مِنْ حَدِيْثٍ أَصْدَقُ مِنَ الرِثَـاءِ؟

وَهَلْ مِنْ رِثَـاءٍ أَصْدَقُ مِنَ رِثَـاءِ الأُمِّ؟

مَـا سَتَقْـرَؤُوْنَهُ فِي هَـذَا الكِتَـابِ - إِنْ شَـاءَ اللهُ- كَـلامُ مُلْتَـاعٍ أَحْسَبُ أَنَّـهُ قَـدِ اِكْتَسَى حُلَّةً مِنَ الـصِدْقِ قَـشِيْبَةً؛ لأَنَّـهُ نَبَعَ مِنَ صَمِيْمِ الفُؤَادِ وَوُجْدَانِهِ، وَانْبَجَسَ مِنْ أَعْمَاقِ القَلْبِ وَأَرْكَانِهِ.

إِنَّـهُ قَـلْبِـيْ زَرَعْتُـهُ عَلَـى صَـفَحَاتِ الـوَرَقِ؛ لِيَنْـبُتَ فِي قُلُوْبِ النَاسِ، وَلِيُثْمِرَ فِي سُلُوْكِهِمْ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيْقِهِ؛ وَقَدْ قَالَ أَمِيْرُ الـمُؤْمِنِيْنَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيْزِ : (**لا يَنْفَعُ القَلْبَ**

إلا مَا خَرَجَ مِنَ القَلْبِ). وَقَالَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِقَيْسٍ العَنْبَرِيُّ: (**الكَلِمَةُ إذا خَرَجَتْ مِنَ القَلْبِ وَقَعَتْ في القَلْبِ، وَإذا خَرَجَتْ مِنَ اللِسَانِ لَمْ تُجَاوِزِ الآذانَ**).

آمُلُ أنْ تَقْرَؤُوْا كِتَابِيْ هَذَا بِعُيُوْنِ القُلُوْبِ؛ كَيْ تَلِجَ كَلِمَاتُهُ في سُوَيْدَاءِ قُلُوْبِكُمْ، وَعَسَى أنْ يَكُوْنَ صَدَاهُ بِرّاً بِوَالِدِيْكُمْ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً ؛ فَأَظْفَرَ بِحُسْنَيَيْنِ:

الأُوْلَى: أَجْرٌ مِثْلُ أَجْرِكُمْ؛ لأَنَّ الدَالَّ عَلَى الخَيْرِ كَفَاعِلِهِ.

وَالأُخْرَى: دَعْوَةٌ صَالِحَةٌ في ظَهْرِ الغَيْبِ لِيْ وَلِوَالِدَيَّ - رَحِمَهُمَا اللهُ - وَلِذُرِّيَّتِيْ.

وَأَتَمَنَّى لَكُمْ مَعَهُ قِرَاءَةً مُمْتِعَةً مُفِيْدَةً بِإذْنِ اللهِ تَعَالَى.

المقدمة

الـحَمْدُ للهِ حَمْداً لا يَبْلَى جَدِيْدُهُ، وَلا يُحْصَى عَدِيْدُهُ، وَلا تُبْلَغُ حُدُوْدُهُ، كَتَبَ رَبُّنَا عَلَى الدُنـْيَا الفَنَاءَ، وَكَتَبَ عَلَى الآخِرَةِ البَقَاءَ، فَلا بَقَاءَ لِـما كَتَبَ عَلَيْهِ رَبُّنَا الفَنَاءَ، وَلا فَنَاءَ لِـمَا كَتَبَ عَلَيْهِ رَبُّنَـا البَقَاءَ، فَطُوْبَى لِـمَنْ أَخَذَ مِنْ فَنَائِهِ الذِيْ لا يَبْقَى لِبَقَائِهِ الذِيْ لا يَفْنَى.

وَالصَلاةُ وَالسَلامُ عَلَى خَيْرِ خَلْقِ اللهِ محمّدِ بنِ عبدِالله الـذِيْ لَـوْ سَلِمَ أَحَدٌ مِنَ الـمَوْتِ لَكَانَ هُوَ السَالِمَ، وَلَوْ كَانَ الـخُلُوْدُ فِي الدُنـْيَا مَنْقَبَةً لَمَا أَحْرَاهُ بأنْ يَكُوْنَ هُوَ الدَائِمَ.

كُتِـــبَ الفَنَـــاءُ عَـــلَى البَـــرِيَّةِ كُلِّهـــا
وَالنَـــاسُ بَيْـــنَ مُقَـــدَّمٍ وَمُخَلَّـــفِ
سُـــبْحَانَ ذِي الـمَلَكُـــوْتِ أَيـــةُّ لَيْلَـــةٍ
خَـضَتْ بـــوَجْهِ صَـبَاحِ يَـوْمِ الـمَوْقِفِ[2]

أَمَّا بَعْدُ:

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

فَعِنْدَمَا تَدْلَهِمُّ ظُلُمَاتُ الحُزْنِ، وَتَكْفَهِرُّ دَيَاجِيْهِ، قَدْ تَبْدُوْ لِلْمَحْزُوْنِ شُمُوْعٌ يَجْلُوْ نُوْرُهَا شَيْئاً مِنْ غَيَاهِبِهِ الدَامِسَةِ، فَتُوْمِضُ خِلالَهَا (**شُمُوْعٌ فِيْ ظَلامِ الحُزْنِ**).

وفي هَجْعَةِ كَوَابِيْسِ الأَسَى وَصَمْتِ الشَجَا قَدْ تَجْرِيْ عَلَى لِسَانِ المَحْزُوْنِ هَمَسَاتٌ يُمَزِّقُ صَدَاهَا سُكُوْنَهُ؛ لأَنَّهَا فَيْضٌ مِنْ بَحْرِ رُؤًى شَجِيَّةٍ صَادِقَةٍ تَتَدَفَّقُ عَلَيْهِ فِي صَفَاءٍ وَزُهْدٍ، فَتُسْمَعُ مِنْ خِلالِهَا (**هَمَسَاتٌ فِي صَمْتِ المَآسِيْ**).

فَمَا أَحْرَى اللبِيْبَ بِأَنْ يُسَرِّحَ طَرْفَهُ فِي شُمُوْعِ المَحْزُوْنِيْنَ!.

وَمَا أَجْدَرَ العَاقِلَ بِأَنْ يُرْهِفَ سَمْعَهُ إلى هَمَسَاتِ المَكْرُوْبِيْنَ!.

وَإِنَّنِيْ حِيْنَمَا أَنَاخَتْ مُصِيْبَةُ مَوْتِ أُمِّيَ الحَبِيْبَةِ (**رُقَيَّةَ بِنْتِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَلِيٍّ الجُمَيْلانِ**) رَحِمَهَا اللهُ، حِيْنَمَا أَنَاخَتْ تِلْكَ المُصِيْبَةُ الجَلِيْلَةُ بِكَلْكَلِهَا عَلَى قَلْبِيْ، وَأَضْوَانِيْ لَيْلُ الكُرْبَةِ بِهُمُوْمِهِ، تَذَكَّرْتُ حِيْنَذَاكَ نِعَمَ اللهِ عَلَيَّ التيْ لا تُحْصَى، وَأَفْضَالَهُ التيْ لا تُنْسَى، وَأَنَّنِيْ قَدْ أَمْضَيْتُ عُقُوْداً خَمْسَةً أَسْبَحُ فِي بُحُوْرِ آلائِهِ وَفَيْضِ مَكَارِمِهِ، كُنْتُ طَوَالَهَا أَتَنَعَّمُ بِلَذَّةِ

عُبُوْدِيَّتِيْ لِرَبِّـيْ، وَأَعْتَزُّ وَأَفْخَـرُ بـها، وَكُنْتُ خِـلالَـهَـا أَدْعُو اللهَ عَزَّ وَجَلَّ في عُلاهُ مُخْبِـتاً إِلَيْهِ وَمُنْكَسِراً بَيْنَ يَـدَيْـهِ: (**إِلَـهِيْ كَفَانِيْ فَـخْـراً أَنْ تَكُـوْنَ لِـيْ رَبّاً، وَكَـفَـانِيْ عِـزّاً أَنْ أَكُـوْنَ لَكَ عَبْـداً، أَنْتَ لِـيْ كَمَا أُحِبُّ، فَاجْعَلْنِيْ كَمَا تُحِبُّ**).

وَكُنْتُ - وَلا زِلْتُ بِـفَـضْلِ اللهِ وَحْدَهُ - أَجْأَرُ إِلَيْهِ مُبْتَهِلاً: ﴿**رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ**﴾ [يوسف: 101].

أَجَلْ، لَقَدِ انْفَرَطَتْ من عُمُرِيْ خَمْسَةُ عُقُوْدٍ انْفِرَاطاً أَسْرَعَ مِنْ جَفْنٍ إِلى إِغْضَاءٍ؛ لأَنَّنِـيْ كُنْتُ فِـيْهَا آنَسُ بِـقُرْبِ الأَحْبَابِ، وَأَسِـيْحُ فِي بِـلادِ اللهِ الوَاسِعَةِ، وفي صَـفَحَاتِ الكُتُبِ الـمَاتِعَةِ، فَالطَرْفُ يَسْرَحُ في كَـوْنِ اللهِ الفَسِيْحِ مُتَفَكِّراً، وَالفِكْرُ يَتَنَعَّمُ في سِيَاحَتِيْنِ:

سِيَاحةٌ في قَارَّاتِ الأَرْضِ، وَسِيَاحَةٌ في عَالَمِ الأَدَبِ.

فَكُنْتُ إنْ رَحَلْتُ نَزَلْتُ بَيْنَ أَصْحَابٍ، وَإِذَا أَقَمْتُ بَقِيْتُ بَيْنَ أَحْبَابٍ: أُمٌّ رَؤُوْمٌ، وَأَوْلادٌ بَرَرَةٌ، وَإِخْوَةٌ مُشْفِقُوْنَ، وَأَخَوَاتٌ عَطُوْفَاتٌ، وَزَوْجَاتٌ حَنُوْنَاتٌ:

أَلا رُبَّ أَعْوَامٍ سَحَبْتُ ذُيُوْلَهَا

سَعِيْداً مَعَ الأَحْبَابِ في شَاهِقٍ أَشَمْ

أُرَشِّحُ آمَالاً طِوَالاً فَأَجْتَنِيْ

جَنَى العَيْشِ في ظِلٍّ ظَلِيْلٍ مِنَ النِعَمْ(٣)

وَهَكَذَا كَانَتْ سِنِيْنِيْ - بِسَبَبِ سَعَادَتِيْ - تَتَصَرَّمُ شُهُوْراً، وَكَانَتْ شُهُوْرِيْ تَمْضِيْ أيّاماً، وَكَانَتْ أيّامِيْ تَتَسَارَعُ سَاعَاتٍ، وَكَانَتْ سَاعَاتِيْ تَنْقَضِيْ دَقَائِقَ....

ألا مَا أَسْرَعَ الدَقَائِقَ في السَاعَاتِ!

وَمَا أَسْرَعَ السَاعَاتِ في الأيَّامِ!

وَمَا أَسْرَعَ الأيَّامَ في الشُهُوْرِ!

وَمَا أَسْرَعَ الشُهُوْرَ في السِنِيْنَ!

وَلَكِنْ - وَأَسَفَاهُ - مَا أَسْرَعَ السِنِيْنَ فِي العُمُرِ!

وَمَـــا هِـــيَ إلا لَيْلَـــةٌ بَعْـــدَ لَيْلَـــةٍ

وَيَـــوْمٌ إلى يَـــوْمٍ وَشَـــهْرٌ إلى شَـــهْرِ

مَطَايَـــا يُقَـــرِّبْنَ الـــجَدِيْدَ إلى البـــلَى

وَيُـــذْنِيْنَ أَشْـــلاءَ الـــصَحِيْحِ مِـــنَ القَـــبْرِ[4]

أَتَرَوْنَ بَعْدَ مَا ذَكَرْتُ أنَّ أَحَداً كَانَ أَنْعَمَ مِنِّيْ بـَالاً؟

أَمْ تَجِدُوْنَ أنَّ امْرَءاً كَانَ أَحْسَنَ مِنِّيْ عِيْشَةً وَحَالاً؟

وَمَا أَجْمَلَ رِحْلَةَ الهُرُوْبِ عَلَى قِطَارِ الذَاكِرَةِ حِيْنَمَا تَسْرِيْ فِي الأَوْصَالِ بُرُوْدَةُ الفَنَاءِ القَاهِرَةُ !!! فَالدُنْيَا جَمَّةُ المَصَائِبِ، وَمُرَّةُ المَشَارِبِ؛ حَيْثُ لا تُمَتِّعُ صَاحِباً بِصَاحِبٍ، وَإنَّ مِنْ سَجَايَاهَا أنَّهَا لا يَدُوْمُ سُرُوْرُهَا، بَلْ يَسْتَمِرُّ مَرِيْرُهَا؛ فَفَجْأَةً مَاتَتْ أُمِّيْ رَحِمَهَا اللهُ، فَخَيَّمَ عَلَيَّ الحَزَنُ بِظِلالِهِ، وَأَرْخَى عَلَيَّ الغَمُّ سُدُوْلَهُ، وَعَلِمْتُ حِيْنَذَاكَ، حِيْنَ العِلْمُ قَدْ يُجْدِي الفَتَى، أنَّ هَذِهِ الدُنْيَا دَنِيَّةٌ؛ فَمَعَ كُلِّ جَرْعَةٍ فِيْهَا - مَهْمَا كَانَتْ مَرِيَّةً -

شَرَقٌ، وفي كُلِّ أَكْلَةٍ فِيْهَا - وَلَوْ كَانَتْ هَنِيَّةً - غَصَصٌ؛ فَالدُّنْيَا - أَيُّهَا الأَحْبَابُ - تُصْبِحُ لِلْنَاسِ مُسِرَّةً، وَلَكِنَّهَا تُمْسِيْ عَلَيْهِمْ مُتَنَكِّرَةً.

وَأَيْقَنْتُ كَذَلِكَ أَنَّهُ لا تُنَالُ فِي الدُّنْيَا نِعْمَةٌ إلا بِفِرَاقِ أُخْرَى، وَلا يَسْتَقْبِلُ مُعَمَّرٌ يَوْماً مِنْ عُمُرِهِ إلا بِهَدْمِ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ.

وَأَدْرَكْتُ أَيْضاً بَعْدَ أَنْ زَالَتِ الغِشَاوَةُ عَنْ عَيْنَيَّ أَنَّ حَيَاةَ الإِنْسَانِ إِنَّمَا هِيَ بَالِيَةٌ كَنَسْجِ العَنْكَبُوْتِ، أَوْ هِيَ أَوْهَنُ، وَهَلْ هُنَاكَ أَوْهَنُ وَأَحْقَرُ مِنْ بَيْتِ العَنْكَبُوْتِ؟: ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: 41]:

وَبَيْتُ العَنْكَبُوْتِ إذا رَحَلْنَا
يُعَادِلُ بالخَوَرْنِقِ وَالسَّدِيْرِ (٥)

إِنَّنِيْ حِيْنَمَا مَاتَتْ أُمِّيْ - رَحِمَهَا اللهُ - حَزِنْتُ حُزْنَ يَعْقُوْبَ عَلَيْهِ السَلامُ، وَبَكَيْتُ بُكَاءَ الثكَالَى، لَكِنْ بلا دَمْعٍ يُطْفِئُ لَهِيْبَ الفَقْدِ وَجَمْرَتَهُ، وَيُخَفِّفُ حَرَارَةَ الوَجْدِ وَحَمْأَتَهُ، وَيُزِيْلُ مَرَارَةَ اللَوْعَةِ، وَيَمْحُو قَتَامَةَ السُهْدِ وَظُلْمَتَهُ:

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

شَرِبْتُ الحُزْنَ كَأْساً بَعْدَ كَأْسٍ
فَمَا نَفِدَ الشَّرَابُ وَمَا رَوِيْتُ[6]

وَرَثَيْتُ أُمِّيْ – رَفَعَ اللهُ مَنْزِلَتَهَا فِي عِلِّيِّيْنَ –، رَثَيْتُهَا؛ لَعَلَّ الرِثَاءَ يَكُوْنُ (نَفْثَةَ مَصْدُوْرٍ)، (وَلا بُدَّ لِلْمَصْدُوْرِ يَوْماً مِنَ النَفْثِ)[7]؛ لِيَزُوْلَ مَا بِهِ، أَوْ يَخِفَّ شَجَنُهُ:

قِيْثَارَتِيْ مُلِئَتْ بِأَنَّاتِ الجَوَى
لا بُدَّ لِلْمَكْبُوْتِ مِنْ فَيَضَانِ
صَعَدَتْ إِلَى شَفَتِيْ خَوَاطِرُ مُهْجَتِيْ
لِيُبِيْنَ عَنْهَا مَنْطِقِيْ وَلِسَانِيْ
أَنَا مَا تَعَدَّيْتُ القَنَاعَةَ وَالرِضَا
لَكِنَّمَا هِيَ قِصَّةُ الأَشْجَانِ
يَشْكُوْ لَكَ اللَّهُمَّ قَلْبٌ لَمْ يَعِشْ
إِلا لِحَمْدِ عُلاكَ فِي الأَكْوَانِ[8]

وَلَكِنَّ ذَلِكَ الرِثَاءَ لَمْ يَزِدْنِيْ إِلا حُزْناً وَحَسْرَةً وَأَسَى؛ إِذْ رَثَيْتُ، فَأَبْكَيْتُ، وَشَدَوْتُ، فَأَشْجَيْتُ، وَمَا سَلَوْتُ سُلُوَّ الأَغْمَارِ، وَلَكِنِّيْ

- بِحَمْدِ الله - صَبَرْتُ صَبْرَ الأَحْرَارِ، (وَالصَبْرُ مِثْلُ اسْمِهِ صَبْرُ)[9] :

فَالصَبْرُ كَالصَبْرِ مُرٌّ فِيْ مَذَاقَتِهِ
لَكِنْ عَوَاقِبُهُ أَحْلَى مِنَ العَسَلِ[10]

(بَلِ الصَبْرُ تَارَاتٍ أَمَرُّ مِنَ الصَبْرِ)[11].

وَلَئِنْ كَانَ الرِثَاءُ عُنْوَاناً لِلْوَفَاءِ فَمَنْ أَحَقُّ مِنْ أُمِّيْ - رَحِمَهَا اللهُ- بِالرِثَاءِ؟.

وَمَنْ أَوْلَى مِنِّيْ لأَغْلَى النَاسِ (أُمِّيْ) - رَحِمَهَا اللهُ - بِالوَفَاءِ؟.

أُمِّيَ التيْ تَتَقَازَمُ الفَصَاحَةُ وَالبَلاغَةُ نَثْراً وَشِعْراً عَنْ وَصْفِ مَآثِرِهَا وَتَعْدَادِ مَنَاقِبِهَا:

أُمَّاهُ حَقُّكِ لاَ تُوْفِيْهِ مَلْحَمَةٌ
تَمُدُّهَا بِلَطِيْفِ السِّحْرِ ذِكْرَاكِ
لَوْلاَكِ مَا فَاضَ شِعْرِيْ مِنْ مَكَامِنِهِ
وَلاَ تَحَرَّكَتِ الأَشْجَانُ لَوْلاَكِ[12]

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَابْنُهَا الـمُحِبُّ الذِيْ مَهْمَا صَنَعَ فَلَنْ يُوَفِّيَهَا حَقَّهَا، وَمَهْمَا خَطَّتْ أَنَامِلُهُ مِنَ الكَلِمَاتِ فَلَنْ تَبْلُغَ مِقْدَارَ شَأْوِهَا، وَلَنْ تَسْتَطِيْعَ العِبَارَاتُ وَالـجُمَلُ أنْ تُفْصِحَ عَنْ مَكْنُوْنِ ضَمِيْرِ ابْنِهَا الـمُلْتَاعِ مِنْ فَقْدِهَا:

مَـاذَا سَـأَكْتُبُ عَـنْ نَهْـرِ الـحَنَانِ وَهَـلْ

يُطِيْـقُ حَمْـلَ شُـعُوْرِيْ نَحْـوَكِ الـوَرَقُ؟

بَـلْ كَيْـفَ أُوْفِـيْكِ مَـا قَـدَّمْتِ مِـنْ كَـرَمٍ

وَمِـنْ حَنَـانٍ وَمِـنْ حُـبٍّ لَـهُ أَلَـقُ؟

أُمَّـاهُ هَـذَا فُـؤَادِيْ جَـاءَ مُعْتَـذِراً

عَـنْ عَجْـزِهِ يَحْتَوِيْـهِ الـخَوْفُ وَالقَلَـقُ

لَمْ يَـسْتَطِعْ بَعْـدَ جَهْـدٍ رَدَّ مَـا بَـذَلَتْ

كَفَّـاكِ حَتَّـى دَنَـا مِـنْ عَزْمِـهِ الـشَفَقُ[13]

وَلَكِنَّ الـحَزَنَ حِيْنَ حَبَسَ دُمُوْعَ عَيْنَيْهِ قَدْ أَسَالَ دَمْعَ قَلَمِهِ، وَقَدْ صَدَقَ مَنْ قَالَ: (**لا أَصْدَقَ مِنَ الرِثَاءِ**)؛ لأنَّ الرَاثِيَ يَرْسِمُ مَشَاعِرَهُ عَمَّنْ لَـمْ يَعُدْ يَرْجُوْ نَوَالَهُ وَلا مَدْحَهُ وَلا رِضَاهُ:

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

طَــوَى الــمَوْتُ أَسْــبَابَ الــمُحَابَاةِ بَيْنَنَــا
فَلَــسْتُ وَإِنْ أَطْنَــبْتُ فِيْــكِ بِمُتَــهَّمْ[14]

وَهَكَـذَا وُلِـدَتْ مَرْثِيَّـتِيْ لأُمِّـيْ رَحِمَهَـا اللهُ؛ حَيْـثُ انْقَـدَحَتْ فِي خَـاطِرِيْ مِـنْ بَـيْنِ رُكَـامِ الأَحْـزَانِ رُؤًى رَسَـمْتُهَا فِي مَقَالَـةٍ وَسَـمْتُهَا بِـ(**يَظَـلُّ الرَجُـلُ طِفْـلاً حَتَّـى تَمُـوْتَ أُمُّـهُ**)، وَنَـشَرَتْهَا صَحِـيْفَةُ (**الـجَزِيْرَةِ**) **الـسُعُوْدِيَّةُ** يَـوْمَ الـخَمِـيْسِ التَاسِـعَ مِـنْ شَـهْرِ جُمَـادَى الآخِـرَةِ مِـنْ عَـامِ 1424 هـ الـمُوَافِقَ الـسَابِـعَ مِـنْ شَهْرِ أَغُسْطُسَ مِنْ عَامِ 2003م.

وَبَعْدَ نَشْرِهَا اتَّصَلَ بِيَ أَكْثَرُ مَنْ أَعْرِفُهُ، وَكَثِـيْرٌ مِمَّـنْ لا أَعْرِفُـهُ، وَكُلُّهُمْ يُبْدُوْنَ تَأَثُّرَهُمْ بِـهَا، وَيَحُثُّوْنَنِـيْ عَلَى نَشْرِهَا فِي كِتَـابٍ يَقْرَؤُهُ مَنْ لَـمْ يَطَّلِعْ عَلَى الـمَقَالَةِ، وَقَبْلَ ذَلِكَ وَبَعْدَهُ لَعَلَّهُ يَعْتَبِـرُ بِـمَا فِـيْهِ مِنْ عِبَرٍ ذَوُو الحِجَى وَالأَلْبَابِ:

فَكَمْ فِي الـحَوَادِثِ مَا يُنَبِّهُ العُيُوْنَ مِنْ سِنَةِ غُرُوْرِهَا.

وَكَمْ فِي الـمَصَائِبِ مَا يُذَكِّرُ النُفُوْسَ بِـأَهَمِّ أُمُوْرِهَا.

وَكَمْ فِي الرَزَايَا مَا يَكْشِفُ بِجَلاءٍ أَنَّ آمَالَ هَذِهِ الدُنْيَا سَرَابٌ، وَأَنَّ كُلَّ الذِيْ فَوْقَ التُرَابِ تُرَابٌ.

وَإِنَّنِيْ إذ أَسْتَجِيْبُ لِرَجَاءِ الرَاجِيْنَ، وَأُقَدِّمُ هَذَا الكِتَابَ الذِيْ يَحْمِلُ غِلافُهُ صُوْرَةَ قَبْرِ أُمِّيْ أَفَاضَ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ شَآبِيْبِ رَحَمَاتِهِ، لأَرْجُوْ مِنَ القُرَّاءِ دَعْوَةً صَادِقَةً صَالِحَةً فِيْ ظَهْرِ الغَيْبِ لِيْ ولأُمِّيْ وَأَبِيْ رَحِمَهُمَا اللهُ؛ لأَنَّنِيْ وَإِيَّاهُمَا اليَوْمَ وَكُلَّ يَوْمٍ أَحْوَجُ مَا نَكُوْنُ إِلَيْهَا؛ فَهِيَ مَا بَقِيَ لَنَا مِنَ الدَعَوَاتِ المُسْتَجَابَةِ بَعْدَ أَنِ انْقَطَعَتْ دَعَوَاتُ الوَالِدَيْنِ.

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى بِأَسْمَائِهِ الحُسْنَى وَصِفَاتِهِ العُلَى أَنْ يَرْحَمَ أُمِّيْ وَأَبِيْ رَحْمَةً وَاسِعَةً تُغْنِيْهِمَا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ سِوَاهَا. وَأَنْ يَفْسَحَ لَهُمَا فِيْ قَبْرَيْهِمَا، وَأَنْ يَمْلأَهُمَا بِالضِيَاءِ وَالنُوْرِ، وَأَنْ يَجْعَلَهُمَا رَوْضَتَيْنِ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ، وَأَنْ يَجْزِيَهُمَا خَيْرَ مَا جَزَى أَبَوَيْنِ عَنْ أَوْلادِهِمَا، وَأَنْ يَشْمَلَنِيْ وَإِيَّاهُمَا مَنّاً مِنْهُ وَفَضْلاً بِعَفْوِهِ وَغُفْرَانِهِ، وَأَنْ يَجْمَعَنِيْ بِهِمَا فِي

الفِـــرْدَوْسِ الأَعْـــلَى مـــنْ جـــنَانِهِ، وَأَنْ يَغْفِـــرَ لِيْ وَلَـهُـمَـــا وَلِلْمُؤْمِـنِـيْنَ وَالـمُؤْمِنَاتِ يَوْمَ يَقُـوْمُ الأَشْهَادُ.

وَالـحَمْدُ للهِ عَلَى قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ. وَإِنَّا للهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِـعُـوْنَ.

الرياض: يوم الاثنين 1424/8/10هـ

2779 شارع رازان/ حيّ الازدهار/ الوحدة 1

الرياض:12485 6547

alaayeddr@gmail.com

وَقْفَةٌ أَمَامَ المَوْتِ

◉ عَجَباً لِلمَوْتِ، ذَلِكُمُ الحَوْضُ المَوْرُوْدُ....

كُلُّ حَيٍّ مَهْمَا طَالَ عُمُرُهُ سَيَرِدُهُ بِلا رَيْبٍ كَارِهاً أَوْ مُطِيْعاً:

المَوْتُ حَوْضٌ لا مَحَالَةَ دُوْنَهُ

مُرٌّ مَذَاقَتُهُ كَرِيْهٌ مَشْرَبُهْ[١٥]

◉ عَجَباً لأبي يَحْيَى (المَوْتِ)، ذَلِكُمُ الكَأْسُ المَشْرُوْبُ....

كُلُّ حَيٍّ سَيَتَجَرَّعُ مِنْهُ شَرْبَةً غَيْرَ سَائِغَةٍ وَلا هَنِيَّةٍ:

المَوْتُ كَأْسٌ عَلَى كُلِّ الوَرَى جَارِيْ

وَلَيْسَ يَبْقَى بِلا مَوْتٍ سِوَى البَارِيْ[١٦]

◉ عَجَباً لِهَادِمِ اللَذَّاتِ وَمُفَرِّقِ الجَمَاعَاتِ، وَعَجَباً لِمُخَرِّبِ الدُوْرِ وَعَامِرِ القُبُوْرِ (المَوْتِ)، ذَلِكُمُ البَابُ المَفْتُوْحُ.... كُلُّ إِنْسَانٍ لا بُدَّ رَاغِماً سَيَدْخُلُهُ:

المَوْتُ بَابٌ وَكُلُّ النَاسِ دَاخِلُهُ

فَلَيْتَ شِعْرِيَ بَعْدَ البَابِ مَا الدَارُ؟

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

لَـوْ كُنْـتُ أَعْلَـمُ مَـنْ يَـدْرِيْ فَيُخْبِـرُنِيْ

أَجَنَّـةُ الـخُلْدِ مَـأْوَانَـا أَمِ النَـارُ؟(17)

◉ عَجَباً لِلْمَـوْتِ بِـأَيِّ اسْمٍ تَسَمَّى... و بِـأَيِّ كُنْيَـةٍ تَكَنَّى... وَبِـأَيِّ لَقَبٍ تَلَقَّبَ؛ فَكُلُّ الطُرُقِ تُؤَدِّيْ إِلَيْهِ، سَرِيْعِهَا وَبَطِيْئِـهَا، بَرِّهَا وَبَحْرِهَا وَجَوِّهَا:

سَبِـيْلُ الـمَـوْتِ غَـايَةُ كُـلِّ حَـيٍّ

فَدَاعِيْـهِ لأَهْـلِ الأَرْضِ دَاعِـيْ(18)

وَأَعْجَبُ مِنْهُ بُنَيُّ آدَمَ؛ كَأَنَّهُ يَسْتَبْطِئُهُ إذا تَأَخَّرَ عَنْهُ، فَيَغُذُّ السَيْرَ جَاهِداً صَوْبَهُ، وَهُوَ يَحْسَبُ أَنَّ فِي هَذَا خَلاصَهُ، وَمَا يَدْرِي الـمِسْكِيْنُ أَنَّهُ يُسْرِعُ بِخُطَاهُ إلى وُرُوْدِ حِيَاضِ الـمَنَايَا:

وَكَـمْ مِـنْ طَـالِبٍ يَـسْعَى لأَمْـرٍ

وَفِـيْهِ هَلاكُـهُ لَـوْ كَـانَ يَـدْرِيْ(19)

◉ ورُبَّ سَاعٍ إلى شَيْءٍ فِيْهِ حَتْفُهُ.

◉ وَ(**رُبَّ امْرِئٍ حَتْفُهُ فِيْمَا تَمَنَّاهُ**)(20).

◉ وَكَمْ مِنْ سَالِكٍ طَرِيْقاً لِيَلْقَى فِي نِهَايَتِهِ وِرْدَهُ وَمُنْتَهَاهُ:

نَـــسِيْرُ إلى الآجَـــالِ فِي كُـــلِّ لَـحْـظَـــةٍ

وَأَيَّامُنَـــا تُطْـــوَى وَهُـــنَّ مَرَاحِـــلُ

وَلَمْ أَرَ مِثْـــلَ الـــمَوْتِ حَـــقّاً كَأَنَّـــهُ

إذا مَـــا تَـخَـطَّتْـــهُ الأَمَانِـــيُّ بَاطِـــلُ[21]

وَهَا هِيَ ذِيْ أَيَادِيْنَا مَا بَرِحَتْ مُعَفَّرَةً بِالتُّرَابِ، تُهِيْلُهُ كُلَّ يَوْمٍ عَلَى أَصْحَابٍ وَأَحْبَابٍ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَفَدَيْنَاهُمْ دُوْنَ الْمَوْتِ وَأَهْوَالِهِ بِالنَفْسِ وَالنَفِيْسِ، وَبِالطَارِفِ وَالتَلِيْدِ، وَلَكِنَّهُ الْمَوْتُ، لا يَقْبَلُ العِوَضَ وَلا الفِدَاءَ، وَإلا لَكُنَّا افْتَدَيْنَا، وَأَغْلَيْنا الفِدَاءَ وَمَا بَخِلْنَا:

وَلَـــوْ أَنَّ هَـــذَا الـــمَوْتَ يَقْبَـــلُ فِدْيَـــةً

فَـــدَيْنَاهُ أَمْـــوَالاً كِرَامـــاً وَأَنْفُـــسَا[22]

كَمَا أَنَّهُ لا يَسْمَحُ بِالإِرْجَاءِ، حَتَّى لَوْ كَانَ الْمُرْتَجَى إِرْجَاؤُهُ أَحَبَّ الأَحْبَابِ، أَباً أَوْ أُمّاً؛ لأَنَّهُ الْمَوْتُ، وَالْمَوْتُ سَيْفٌ مَسْلُوْلُ لا تَرُدُّهُ شَجَاعَةُ الأَشِدَّاءِ، وَ لا يُنجِيْ مِنْهُ جُبْنُ الْجُبَنَاءِ، وَلا يَسْلَمُ مِنْهُ مَلِكٌ نَافِذُ الأَمْرِ، وَلا فَقِيْرٌ خَامِلُ الذِكْرِ:

لَكِنَّــهُ الــمَوْتُ لا يُرْضِــيْهِ بَــذْلُ فِــدًى
وَلا يُــصِيْخُ إلى عَــذْلٍ وَلا فَنَــدِ
وَلا يَــرِقُّ لِــذِيْ ضَــعْفٍ وَذِيْ خَــوَرٍ
وَلا يُحَــاذِرُ بَطْــشَ الفَــارِسِ النَجــدِ
يَــأْتِي الــمُلُوْكَ مُلُــوْكَ الأَرْضِ مُقْــتَحِماً
وَيُخْــرِجُ الــشِبْلَ مِــنَ عِرِّيْــسَةِ الأَسَــدِ[23]

بَلْ حَيَاتُنَا آجَالٌ مُقَدَّرَةٌ، لا تَتَقَدَّمُ وَلا تَتَأَخَّرُ، وَأَنْفَاسٌ مَعْدُوْدَةٌ، لا تَزِيْدُ، وَلا تَنْقُصُ، وَإذا حَضَرَتِ الآجَالُ افْتُضِحَتِ الآمَالُ: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: 61].

أَجَلْ، إنَّهُ الـمَوْتُ....

وَالـمَوْتُ في مَوَازِيْنِ الـحُكَمَاءِ الـمُعْتَبَرِيْنَ أَشَدُّ مِمَّا قَبْلَهُ، وَلَكِنَّهُ بلا رَيْبٍ أَهْوَنُ مِمَّا بَعْدَهُ:

هُــوَ الــمَوْتُ لا مَنْجَــى مِــنَ الــمَوْتِ وَالــذِيْ
نُحَــاذِرُ بَعْــدَ الــمَوْتِ أَنْكَــى وَأَفْظَــعُ[24]

فَبَعْدَهُ ظَلامُ القُبُوْرِ، وَهَوْلُ النُشُوْرِ:

وَمِـــنْ بَعْـــدِ ذَا حَـــشْرٌ وَنَـــشْرٌ وَمَوْقِـــفٌ
وَيَـــوْمٌ بـــهِ يُكْـــسَى الـــمَذَلَّةَ مُـــذْنِبُ[25]

إيْ وَاللهِ بَعْدَهُ يَوْمٌ عَسِيْرٌ، شَرُّهُ مُسْتَطِيْرٌ، فِيْهِ تَتَعَالَى صَيْحَاتُ الوَيْلِ وَالثُّبُوْرِ مِنْ أَصْحَابِ الغِوَايَةِ وَالفُجُوْرِ، وَلَوْلا ذَلِكَ الـمَآلُ والـمَصِيْرُ لَصَارَ الـمَوْتُ مَطْلباً لِكُلِّ إِنْسَانٍ إذا ضَاقَ بِـهِ الـمُقَامُ في دَارِ الشَقَاءِ وَالـهَوَانِ:

وَلَـــوْ أنـــــَّا إذا مِتْنَـــــا تُرِكْنَـــــا
لَكَـــانَ الـــمَوْتُ رَاحَـــةَ كُـــلِّ حَـــيِّ
وَلَكِنَّـــــا إذا مِتْـــــنَا بُعِثْنَـــــا
وَنُـــسْأَلُ بَعْـــدَهُ عَـــنْ كُـــلِّ شَيِّ[26]

وَلِذَا فَمَنْ تَرَقَّبَ الـمَوْتَ لَـهَا عَنِ الـمَلَذَّاتِ، وَمَنِ اشْتَاقَ إلى الـجَنَّةِ سَارَعَ إلى الـخَيْرَاتِ، وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النَارِ فَرَّ عَنِ الشَهَوَاتِ وَالشُبُهَاتِ، وَمَنْ زَهِدَ في الدُنْيَا هَانَتْ عَلَيْهِ الـمُصِيْبَاتُ، وَمَنْ فُتِحَ لَهُ بَابٌ مِنَ الـخَيْرِ فَلْيَنْتَـهِزْهُ؛ فَإِنَّهُ لا يَدْرِيْ مَتَى يُغْلَقُ عَنْهُ؟،

وَلَيْسَ بَعْدَ الـمَوْتِ مِنْ مُسْتَعْتَبٍ، وَلا بَعْدَ الدُنْيَا مِنْ دَارٍ إلا الـجَنَّةُ أَوِ النَارُ:

فَيَـــا أَيـــُّهَا البَاغِـــي الفِـــرَارَ أَمَامَـــهُ

هُـوَ الـمَوْتُ فـاعْلَمْ أنـَّهُ سَـوْفَ يَلْحَـقُ[27]

الطَرِيْقُ إلى المَوْتِ

قَبْلَ أَيـامٍ قَدِمَتْ مَنْ كُنْتُ أَتَـمَنَّى قُدُوْمَهَا كُلَّ حِيْنٍ، وَأَرَى فِي لُقْيَاهَـا عِـيْدِيَ الـحَقِيْقِـيَّ، أَتَتْ مَـنْ كَانَـتْ طَلْعَـةُ مُحَيَّاهَـا تُزِيْـلُ هُمُوْمِـيْ، وَتُكْـشَفُ بِـهَا بِـفَـضْلِ اللهِ غُمُـوْمِيْ، وَتَغْمُـرُ قَلْبِـيْ بِـالسَعَادَةِ وَالـحُبُوْرِ.

أَجَلْ، لَقَدْ قَدِمَتْ أُمِّيْ إِلَيْنَا فِي الرِيَاضِ، وَلَكِنَّهَـا فِي هَـذِهِ الـمَرَّةِ أَتَتْ، وَهِـيَ تُعَانِـي انْـسِدَاداً فِي أَحَدِ شَرَايِـيْنِ قَلْبِـهَا الـذِيْ أَضْـنَاهُ حَنَانُ الأُمُوْمَةِ وَإِشْفَاقُهَا، جَاءَتْ آمِلَةً أَنْ يَزُوْلَ التَعَبُ اليَسِيْرُ مِـنْ صَـدْرِهَا، وَلا سِـيَّمَا أَنَّـهَا قَـدْ عَلِمَـتْ أَنَّ عَمَلِـيَّاتِ (القَـسْطَرَةِ) القَلْبِـيَّةَ أَصْبَحَتْ مِنْ أَيْسَرِ الأُمُوْرِ الطِبِّـيَّةِ:

إذا مَـــا حِمَـــامُ الـــمَرْءِ كَـــانَ بِـــبَلْدَة

دَعَتْـــهُ إِلَيْهَـــا حَاجَـــةٌ فَيَطِـــيْرُ[28]

أُدْخِلَتْ أُمِّيَ الـمُسْتَشْفَى تَحُوْطَهَا الدَعَوَاتُ الصَادِقَاتُ مَرْفُوْعَةً إلى رَبِّ الأَرْبَابِ أَنْ يَمُـنَّ عَلَيْهَـا بِـاكْتِمَالِ العَافِـيَةِ مَوْلانَـا العَزِيْـزُ الوَهَّابُ.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَكَانَ لَهَا مَا أَرَادَتْ، وَنَحْنُ مِثْلُهَا، فَأَجْرَى لَهَا الأَطِبَّاءُ عَمَلِيَّةَ القَسْطَرَةِ، وَنَجَحَتْ بِتَوْفِيْقِ اللهِ، وَقَدَّمَ طَبِيْبُهَا وَصْفَةَ الدَوَاءِ اللازِمِ لِمَا بَعْدَ العَمَلِيَّةِ، وَخَرَجَتْ وَالِدَتِيْ مِنَ المُسْتَشْفَى بِعَافِيَةٍ، وَلَكِنْ؛ لِيَجْرِيَ المُقَدَّرُ أَجَّلَتْ صَيْدَلِيَّةُ المُسْتَشْفَى إِعْطَاءَ بَعْضِ الأَدْوِيَةِ اللازِمَةِ ثَلاثَةَ أيَّامٍ؛ لأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ مُتَوَافِرَةً حِيْنَذَاكَ لَدَيْهَا!!!.

وَبَعْدَ ثَلاثَةِ أيَّامٍ شَعَرَتْ أُمِّيْ بِالأَعْرَاضِ الخَفِيْفَةِ نَفْسِهَا التي كَانَتْ تُعَانِيْهَا مِنْ قَبْلُ، وَكَانَتِ المُفَاجَأَةُ أنَّ الشِرْيَانَ نَفْسَهُ قَدْ عَادَ إِلَيْهِ الانْسِدَادُ، وَلَكِنَّ الأَشَدَّ فُجَاءَةً أنَّ حُدُوْثَ ذَلِكَ -كَمَا قَالَ الطَبِيْبُ نَفْسُهُ - كَانَ بِسَبَبِ تَأْجِيْلٍ لِتَنَاوُلِ أَحَدِ الأَدْوِيَةِ، وَهُوَ الذِيْ لَمْ يَكُنْ مُتَوَافِراً في صَيْدَلِيَّةِ المُسْتَشْفَى!!!.

عِنْدَ ذاكَ قَرَّرَ الطَبِيْبُ إِدْخَالَهَا إلى العِنَايَةِ المُرَكَّزَةِ فَوْراً اِسْتِعْدَاداً لإِجْرَاءِ عَمَلِيَّةِ قَسْطَرَةٍ أُخْرَى لَهَا، وَلَكِنْ؛ وَلِيَجْرِيَ أَيْضاً مَا قَضَاهُ اللهُ وَقَدَّرَهُ، عَمَدَ الأَطِبَّاءُ قَبْلَ ذَلِكَ اجْتِهَاداً مِنْهُمْ إلى إِعْطَائِهَا حُقْنَةً

تُسْتَعْمَلُ عَادَةً فِي إِزَالَةِ اِنْسِدَادَاتِ الشَرَايِيْنِ؛ عَسَى أَنْ يُغْنِيَهُمْ ذَلِكَ الصَنِيْعُ العَاجِلُ بِإِذْنِ اللهِ وَعَوْنِهِ عَنْ إِجْرَاءِ العَمَلِيَّةِ مَرَّةً أُخْرَى:

◉ (وَإِذا حَانَ وَقْتُ النَائِبَةِ أَتَى الشَرُّ مِنْ حَيْثُ كَانَ الخَيْرُ عَادَةً يَأْتِيْ).

◉ وَمَهْمَا اجْتَهَدْنَا فِي أَنْوَاعِ الدَوَاءِ فَأَمْرُ اللهِ أَنْفَذُ؛ فَقَدْ يَغَصُّ بِالمَاءِ شَارِبُهُ، وَقَدْ يَقْتُلُ الدَوَاءُ المُسْتَشْفِيَ بِهِ:

كَمْ شَارِبٍ عَسَلاً فِيْهِ مَنِيَّتُهُ

وَكَمْ تَقَلَّدَ سَيْفاً مَنْ بِهِ ذُبِحَا[٢٩]

وَالدَوَاءُ إِنَّمَا هُوَ سَبَبٌ مِنَ الأَسْبَابِ تُسْتَمْطَرُ بِهِ رَحْمَةُ الكَرِيْمِ الوَهَّابِ، لَكِنَّ الأَقْدَارَ مِنَ السَبَبِ أَحَقُّ، وَإِلى المَكْتُوْبِ أَسْبَقُ:

نُعَلِّلُ بِالدَوَاءُ إِذا مَرِضْنَا

وَهَلْ يَشْفِيْ مِنَ المَوْتِ الدَوَاءُ

وَنَخْتَارُ الطَبِيْبَ وَهَلْ طَبِيْبٌ

يُؤَخِّرُ مَا يُقَدِّمُهُ القَضَاءُ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَمَـــــا أَنْفَـــــاسُنَا إلا حِـــــسَابٌ

وَلا حَرَكـــــــاتُنَا إلا فَنَـــــــاءُ(30)

وَإنْ أَنْـسَ فَـلا يُمْكِـنُ أنْ أَنْـسَى حِـيْنَ انْتَهَـى وَقْـتُ الزِيَـارَةِ الـمَسَائِـيَّةِ حَيْثُ كَانَتْ أُمِّيْ تَقُوْلُ لِـيْ، وَهِيَ تَحْمَدُ اللهَ: إنَّهَا لَـمْ تَعُدْ تَشْعُرُ إلا بِـوَخْزٍ يَسِـيْرٍ في الظَهْرِ.

ثُـمَّ وَدَّعْتُ حَبِـيْبَةَ القَلْـبِ (أُمِّـيْ) عِنْـدَ الـسَاعَةِ التَاسِعَةِ تَمَامـاً، وَتَرَكْـتُ غُرْفَتَهَـا بَعْـدَ أنْ أَوْدَعْتُـهَا رَبِّيْ، ثُـمَّ أَوْدَعْتُـهَا قَلْبِـيْ، وَانْصَرَفْتُ عَنْهَا، وَهِيَ تَلْهَجُ بِـحَمْدِ رَبِّهَا تَـسْبِـيْحاً وَتَهْلِـيْلاً، وَمَـنْ يَرَاهَا لا يَخَالُهَا إلا في كَمَالِ عَافِيَتِهَا؛ فَهِيَ دَائِماً صَابِـرَةٌ مُحْتَسِبَةٌ؛ لأَنَّهَا مِنَ الذِيْنَ يُؤْلِـمُهُمْ أنْ يَرَى النَاسُ آلامَهُمْ، عَلَى حِيْنِ يَرْتَاحُ الكَثِـيْرُ مِنَ البَشَرِ أنْ يُثْرِثِرُوا بِـمَتَاعِـبِـهِمْ وَشَكْوَاهُمْ مِمَّا يُلِمُّ بِـهِمْ لِغَـيْرِ اللهِ رَبِّ العَالَـمِـيْنَ.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَلَمْ أَكُنْ أَدْرِيْ أَنَّهُ سَيَكُوْنُ هٰذَا الوَدَاعِ مَا بَعْدَهُ؛ فَعِنْدَ السَاعَةِ الثَانِيَةِ بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَيْلِ إذا بِالهَاتِفِ الجَوَّالِ يَرِنُّ، وَيُلِحُّ في النِدَاءِ، وَتِلْكَ سَاعَةٌ لا تُطْرَقُ فِيْهَا الطَيْرُ في أَوْكَارِهَا، فَأَزَاعَ ذَلِكَ قَلْبِيْ وَأَفْزَعَنِيْ؛ إذ رَجَّحْتُ أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ مَكْرُوْهٌ، وَتَوَقُّعُ المُصِيْبَةِ عَادَةً أَشَدُّ هَوْلاً مِنْ وُقُوْعِهَا إلا في تِلْكَ السَاعَةِ العَصِيْبَةِ، وَتِلْكَ الفَاجِعَةِ المُصِيْبَةِ.....

نَهَضْتُ مِنْ فِرَاشِيْ فَزِعاً مَذْعُوْراً، أَسْأَلُ المَوْلَى -جَلَّ جَلالُهُ- اللُطْفَ في قَضَائِهِ، وَأَعْثُرُ في مِشْيَتِيْ أَنَّى اتَّجَهْتُ بِوَجْهِيْ، وَحِيْنَ أَبْصَرْتُ بِعَيْنٍ غَابَ بِالنَوْمِ نِصْفُ نَظَرِهَا، وَرَأَيْتُ عَلَى شَاشَةِ الهَاتِفِ الجَوَّالِ اِسْمَ (**إبْرَاهِيْمَ**) أَخِيْ، وَهُوَ أَبُرُّنَا بِأُمِّهِ، وَكُلُّ إِخْوَتِيْ وَأَخَوَاتِيْ بِحَمْدِ اللهِ بَرَرَةٌ، وَلَكِنْ أَشْهَدُ لِـ(**إبْرَاهِيْمَ**) أَنَّهُ مَا مَاتَ مَنْ خَلَّفَ مِثْلَهُ.

أَقُوْلُ: حِيْنَذَاكَ أَيْقَنْتُ أَنَّهُ قَدْ حَصَلَ لأُمِّيْ مَا لا أَتَمَنَّى سَمَاعَهُ، فَغَشِيَتْنِيْ غِشَاوَةٌ، ثُمَّ اسْتَرْجَعْتُ، وَقُلْتُ: (حَسْبُنَا اللهُ، وَنِعْمَ

الوَكِيْلُ)، وَاسْتَمَعْتُ إلَيْهِ بِـمَا بَقِيَ مِنْ حَوَاسِّيْ، وإذا بِـهِ يَقُوْلُ: إنَّ الـمُسْتَشْفَى اتَّصَلُوْا بِـهِ، وَأَخْبَرُوْهُ أنَّ وَالِدَتَنَا حَصَلَ نَزِيْفٌ دَاخِلِيٌّ في رَأْسِهَا، وَأنَّهَا تَحْتَاجُ إلى عَمَلِيَّةٍ عَاجِلَةٍ لِسَحْبِ الدَمِ مِنَ الرَأْسِ.

هَبَبْتُ مُسْرِعاً إلى الـمُسْتَشْفَى، وَهُنَاكَ وَجَدْتُ أَخِيْ **(إبْرَاهِيْمَ)** قَدْ سَبَقَنِيْ كَعادَتِهِ في مَيَادِيْنِ الـمَآثِرِ، فَظَلَلْتُ مَعَهُ قُرْبَ غُرْفَةِ العَمَلِيَّاتِ سَاعَاتٍ خَمْساً نَنْتَظِرُ نَتِيْجَةَ العَمَلِيَّةِ انْتِظَارَ الـمُعْسِرِ لِلْيُسْرِ.

وَنَتَحَرَّى خُرُوْجَ أُمِّيْ تَحَرِّيَ الصَائِمِ لِسَاعَةِ الفِطْرِ.

وَنَتَلَهَّفُ لِسَمَاعِ بُشْرَى مُبَشِّرٍ عَنْهَا تَلَهُّفَ الـمُجْدِبِ لِنُزُوْلِ القَطْرِ.

بَلْ نَتَرَقَّبُ أَيَّ خَبَرٍ تَرَقُّبَ السَاهِرِ لِطُلُوْعِ الفَجْرِ.

وَمَا كُنْتُ أَعْلَمُ أنَّ للانْتِظَارِ حُرْقَةً تَتَفَطَّرُ لَهَا الأَكْبَادُ، وَتَشْحَبُ لَهَا الوُجُوْهُ، إلا في تِلْكَ السَاعَاتِ العَسِيْرَةِ التيْ رَحِمَنَا فِيْهَا كُلُّ مَنْ رَآنَا وَنَحْنُ نُكَابِدُ طُوْلَ الاِنْتِظَارِ: **(وَطُوْلُ الاِنْتِظَارِ ضَرْبٌ مِنْ الـحِدَادِ)**.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَبَعْدَ انْتِظَارٍ مَرِيْرٍ أُخْرِجَتْ أُمِّيْ مِنْ غُرْفَةِ العَمَلِيَّاتِ، وَلَكِنَّهَا مَعَ الأَسَفِ خَرَجَتْ جَسَداً لا حِرَاكَ بِهِ، فَبَقِيْنَا سَاعَاتٍ أُخْرَى خَمْساً نَنْتَظِرُ إِفَاقَتَهَا، وَفِيْنَا يَتَصَارَعُ الغَرِيْمَانِ: الأَمَلُ المُنْتَظَرُ، وَاليَأْسُ المَحْذُوْرُ، فَاحْتَاجَ الفَصْلُ بَيْنَهُمَا إِلى فُحُوْصَاتٍ جَدِيْدَةٍ وَدَقِيْقَةٍ لأُمِّيْ بِالأَشِعَّةِ المَقْطَعِيَّةِ، لِيَأْتِيَ بَعْدَهَا الخَبَرُ الطِبِّيُّ الذِيْ يَقْطَعُ الشَكَّ بِاليَقِيْنِ، فَيَجْمَعَنَا أَنَا وَإِخْوَتِيَ الطَبِيْبُ؛ لِيُخْبِرَنَا بَعْدَ أَنْ أَبْرَزَ لَنَا مَا بَذَلَهُ مَعَ زُمَلائِهِ مِنْ جُهُوْدٍ مُضَاعَفَةٍ، بِأَنَّ وَالِدَتَنَا قَدْ أُصِيْبَتْ فِي الجُزْءِ الآخَرِ مِنَ الرَأْسِ بِنَزِيْفٍ أَيْضاً، وَأَنَّ جَلْطَةً دِمَاغِيَّةً كَبِيْرةً أَصَابَتْهَا، وَأَنَّ الِاحْتِمَالَ الرَاجِحَ لَدَيْهِ هُوَ أَنَّهَا لَنْ تُفِيْقَ، وَأَنَّهَا سَتَظَلُّ عَلَى أَجْهِزَةِ التَنَفُّسِ وَالتَغْذِيَةِ، وَتَحْتَ الرَقَابَةِ الدَقِيْقَةِ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُوْلاً:

إِنَّ الطَبِيْبَ لَهُ فِي الطِبِّ مَعْرِفَةٌ
مَا دَامَ فِي أَجَلِ الإِنْسَانِ تَأْخِيْرُ
حَتَّى إِذا مَا انْقَضَتْ أَيَّامُ مُدَّتِهِ
حَارَ الطَبِيْبُ وَخَانَتْهُ المَقَادِيْرُ(31)

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَلَمْ يَكُنْ حِيْنَذَاكَ أَمَامِيْ وَأَمَامَ إِخْوَتِيَ المَكْلُوْمِيْنَ مِثْلِيْ بِهَذا المُصَابِ الجَلَلِ إلا أنْ نَقُوْلَ صَابِرِيْنَ مُؤْمِنِيْنَ مُحْتَسِبِيْنَ: **(اللّٰهُمَّ لا رَادَّ لِقَضَائِكَ وَقَدَرِكَ، وَإِنَّا للهِ وَإِنّا إِلَيْهِ رَاجِعُوْنَ)**.

وَبَكَى قَلْبِيْ عَلَى حَالِ أُمِّيْ شَجاً وَحُزْناً، وَحَشْرَجَتِ الدُمُوْعُ فِي حَلْقِيْ، وَتَمَنَّيْتُ لَوْ أنَّهَا سَالَتْ عَلَى الخَدِّ نَدِيَّةً؛ كَيْ تُخَفِّفَ بَعْضاً مِمَّا آلَمَ قَلْبِيْ مِنْ هَذِي البَلِيَّةِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ البَوْحَ المَعِيْبَ أَهْوَنُ عَلَى المَرْءِ المَفْجُوْعِ مِنْ جَسْرِ الدُمُوْعِ الدَاخِلِيَّةِ:

يُبَكِّيْكِ عَلَيْكِ القَلْبُ لا العَيْنُ إِنَّنِيْ

أَرَى القَلْبَ أَوْفَى بِالعُهُوْدِ وَأَكْرَمَا[32]

وَمَعَ ذَلِكَ البَلاءِ وَالمُصَابِ صَبَرْتُ صَبْرَ مُحْتَسِبٍ؛ لأنَّ أَفْضَلَ الأَشْيَاءِ عِنْدَ المَصَائِبِ الصَبْرُ، وَالمَحْبُوْرُ مَنْ حَبَرَهُ الثَوَابُ، وَالخَائِبُ مَنْ أَمِنَ العِقَابَ، وَالصَابِرُ تُعَجَّلُ لَهُ الرَاحَةُ، وَيُؤَجَّلُ لَهُ الثَوَابُ، وَالجَازِعُ يُرَدُّ إلى الصَبْرِ غَيْرَ مُثَابٍ، وَإِنَّ حَلاوَةَ الأَجْرِ لَسَوْفَ تُخَفِّفُ بِعَوْنِ اللهِ تَعَالَى مَرَارَةَ الصَبْرِ:

صَـــــبَرْتُ لأنَّ الـــــصَبْرَ خَـــــيْرٌ مَـغَـــــبَّةً
وَلا جَـــــزَعٌ يُجْـــــدِيْ عَـــــلَيَّ فَـــــأَجْزَعُ
صَـــبَرْتُ عَـــلَى مَـــا لَـــوْ تَحَمَّـــلَ بَعْضَـــهُ
جـــــبَالُ شَرُوْرَى أَصْـــــبَحَتْ تَتَـــــصَدَّعُ
مَلَكْـــــتُ دُمُـــــوْعَ العَـــــيْنِ ثـــــمَّ رَدَدْتُهَـــــا
إلى نَـــــاظِرِيْ فَـــــالعَيْنُ فِي القَلْـــــبِ تَـــــدْمَعُ[٣٣]

وَعِشْتُ كَمَا عَاشَ إِخْوَتِيْ وَأَخَوَاتِيْ مَا بَيْنَ اليَأْسِ وَبَصِيْصِ الأَمَلِ الذِيْ لا يَنْتَظِرُهُ غَيْرِيْ وَغَيْرُهُمْ، عِشْنَا سَبْعَةَ عَشَرَ يَوْماً، وَكُنْتُ أُجَاهِدُ خِلالَهَا نَفْسِيْ عَلَى الظَفَرِ بِحَلاوَةِ الإِيْمَانِ بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ، وَبِمُدَافَعَةِ وَسَاوِسِ الشَيْطَانِ الذِيْ كَانَ مَا يَفْتَأُ يُذَكِّرُنِيْ بِقَوْلِ الشَاعِرِ:

إذا مَـــا مَـــاتَ بَعْـــضُكَ فَابْـــكِ بَعْـــضاً
فَـــإِنَّ الـــبَعْضَ مِـــنْ بَعْـــضٍ قَرِيْـــبُ[٣٤]

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَكَانَ الشَيْطَانُ الرَجِيْمُ حَرِيْصاً عَلَى أنْ يَجْذِبَنِيْ إلى حَمْأَةِ اليَأْسِ وَكَآبَةِ القُنُوْطِ.

وَتَوَاصَلَتْ زِيَارَاتِيْ لأُمِّيَ المُسَجَّاةِ عَلَى السَرِيْرِ الأَبْيَضِ، وَكَانَ خِلالَ الزِيَارَاتِ قَلْبِيَ الشَجِيُّ قَبْلَ لِسَانِيَ النَدِيِّ يُرَدِّدُ بِحَسْرَةٍ وَأَسًى:

أَعْزِزْ عَلَيَّ بِأَنْ أَزُوْرَكِ عَائِداً

أَوْ أَنْ أَرَى بِفِنَائِكِ العُوَّادَا[35]

وَكُنْتُ طَوَالَ أَوْقَاتِ الزِيَارَاتِ المَسْمُوْحِ بِهَا عَدِيْمَ الحَوْلِ والطَوْلِ، لا أَمْلِكُ لأُمِّيْ إلا الدُعَاءَ وَرُقْيَتَهَا بِقِرَاءَةِ القُرْآنِ الكَرِيْمِ الذِيْ مَا كَانَتْ أَكْثَرَ عُمُرِهَا لِتَفْتُرَ عَنْ سَمَاعِهِ مِنْ خِلالِ إِذَاعَةِ القُرْآنِ الكَرِيْمِ، وَكُنْتُ لا أَمَلُّ مِنْ تَقْبِيْلِ رَأْسِهَا وَجَبِيْنِهَا وَخَدَّيْهَا وَيَدَيْهَا، وَمِنْ ثَمَّ أَخْرُجُ وَالحُزْنُ يَعْمُرُ قَلْبِيْ؛ لأَهِيْمَ فِي غَيْمَةٍ دَاكِنَةٍ مِنَ الكَآبَةِ وَالأَسَى لا تُخْفِيْ حَقِيْقَتَهَا الأَقْنِعَةُ المُتَصَنَّعَةُ التِيْ أَلْقَى بِهَا كُلَّ مَنْ أَلْقَاهُ:

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

تَائِـــــهٌ يَرْقُـــــبُ القَـــــمَرْ
حَـــــائِرٌ زَائِـــــغُ البَـــــصَرْ
خَـــــائِفٌ سَطـــــوْةَ القـــــدَرْ
سَـــــاهِرٌ مَلـــــهُ الـــــسَهَرْ
قَلـــــبُهُ لَفـــــهُ الـــــضَجَرْ
ضَـــــائِقُ الـــــصَدْرِ مُنْكَـــــسِرْ
سِرُّهُ ذَاعَ وَانْتَـــــــــــــــشَرْ
يَمْـــــلأُ الـــــسَمْعَ وَالنَظـــــرْ
حُلـــــوُهُ الـــــصَبْرُ بَـــــلْ أَمَـــــرْ
مُـــــرُّهُ قَطـــــرَةُ المَطـــــرْ
صَـــــبْرُهُ خَانَـــــهُ الظـــــفَرْ
مَـــــا مَـــــعَ الـــــمَوْتِ مُـــــصْطَبَرْ
زَادُهُ الغَـــــمُّ وَالـــــحَذَرْ
شـــــرْبُهُ دَمْعَـــــةُ الكـــــدَرْ
بَوْحُـــــهُ صَرْخـــــةُ القـــــهَرْ
صَمْتـــــهُ أَبْلـــــغُ العِـــــبَرْ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

إِنْ شَـــكَا عِيْـــبَ فَانـــتَهَرْ
أَوْ بَكَـــى لِـــيْمَ فَـــازْدَجَرْ
فَلـــتُكُ الحِـــيْلَةُ الـــصَبَرْ[36]

وَمِنْ عَجَائِبِ أَفْكَارِيْ طَوَالَ الأيَّامِ العَصِيْبَةِ أنَّنِيْ في مَرَّاتٍ غَيْرِ قَلِيْلَةٍ تَمَنَّيْتُ أنْ تَكُوْنَ أُمِّيْ مُقْعَدَةً، إيْ وَاللهِ تَمَنَّيْتُهَا مُقْعَدَةً؛ حَيْثُ كُنْتُ أَلْتَفِتُ يَمِيْناً وَشِمَالاً حَوْلَ سَرِيْرِهَا نَحْوَ المَرْضَى القَابِعِيْنَ مَعَهَا في العِنَايَةِ المُرَكَّزَةِ، فَأَرَى مَرِيْضاً مُلازِماً لِسَرِيْرِهِ لا يَسْتَطِيْعُ النُزُوْلَ عَنْهُ؛ مِنَ الضَعْفِ وَالإِجْهَادِ، وَآخَرَ بَلَغَ بِهِ الإِعْيَاءُ أنَّهُ لا يَتَكَلَّمُ إلا هَمْساً، فَأَتَمَنَّى أنْ تَعُوْدَ أُمِّيْ، وَلَوْ عَلَى مِثْلِ حَالَةِ هَذَا، أوْ مِثْلِ حَالَةِ ذَاكَ.

أَرَأَيْتُمْ قَبْلِيْ إِنْسَاناً تَمَنَّى لأُمِّهِ مِثْلَ مَا تَمَنَّيْتُ لأُمِّيْ؟

أَعَلِمْتُمْ قَبْلِيَ ابْناً بَخِلَ عَلَى أُمِّهِ بِالأَمَانِيِّ الطَيِّبَةِ - وَهِيَ المُحْتَاجَةُ إلى أَعْظَمَ مِنْهَا - كَمَا بَخِلْتُ أَنَا عَلَى أُمِّيْ؟

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

عَلَى رِسْلِكُمْ، لا تَعْجَلُوْا فِي عَذْلِيْ وَلا مَلامِيْ؛ إنَّهُ مِنْ فَرْطِ حُبِّيْ لأُمِّيْ، لَقَدْ كَانَ الشَيْطَانُ يُوَسْوِسُ لِيْ؛ لِيُوْقِعَنِيْ فِي شِرَاكِهِ، فَيَقُوْلُ لِيْ: مَا عَلَيْهِ أُمُّكَ هُوَ مَا عَنَاهُ الشَاعِرُ بِقَوْلِهِ:

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ

إنَّمَا الْمَيْتُ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ[37]

وَكَانَ الْمُوَسْوِسُ الْمُوَشْوِشُ (**الشَيْطَانُ**) يُوَسْوِسُ وَيُوَشْوِشُ فِي رُوْعِيْ جَاهِداً، وَيَقُوْلُ لِيْ عَامِداً:

(إنَّ أُمَّكَ لا حَيَّةٌ فَتُرْجَى، وَلا مَيْتَةٌ فَتُنْسَى)

فَأَدْحَرُهُ رَاضِياً وَقَانِعاً بِأنْ تَبْقَى لِيَ أُمِّيْ، وَلَوْ عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ الْمُحْزِنَةِ، وَأَقُوْلُ فِي نَفْسِيْ:

(مَا نَزَالُ بِخَيْرٍ مَا بَقِيَ جَسَدُهَا بَيْنَنَا).

وَكُنْتُ فِي كُلِّ حِيْنٍ أَرَاهَا فِيْهِ عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ مِنَ السُكُوْنِ الذي لا يُعَدُّ صَاحِبُهُ مِنَ الأَحْيَاءِ وَلا مِنَ الأَمْوَاتِ، أَجِدُ فِي تَقْبِيْلِ يَدَيْهَا وَرَأْسِهَا وَجَبِيْنِهَا لَذَّةً لَمْ أَتَذَوَّقْ مِثْلَهَا مِنْ قَبْلُ؛ فَهُوَ السَبِيْلُ الوَحِيْدُ البَاقِيْ للتَعْبِيْرِ عَنِ الْمَحَبَّةِ وَالإعْزَازِ.

وَلَقَدْ كَانَ النَاصِحُوْنَ يَنْصَحُوْنَنِيْ بِأَنْ أَسْأَلَ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُحْيِيَهَا مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْراً لَهَا، وَأَنْ يَخْتَارَ لَهَا الأُخْرَى مَا كَانَتِ الأُخْرَى خَيْراً لَهَا، وَإِنِّيْ لأَقُوْلُ الآنَ:

وَاللهِ الذِيْ لا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّنِيْ لَمْ تَقْبَلْ نَفْسِيْ أَنْ أَدْعُوَ بِهَذَا الدُعَاءِ المَأْثُوْرِ إلا ظُهْرَ اليَوْمِ الذِيْ فِيْهِ مَاتَتْ أُمِّيْ رَحِمَهَا اللهُ، وَلَسْتُ أَدْرِيْ لِمَاذا اسْتَجَابَتْ نَفْسِيْ لِذَلِكَ، وَقَبِلَتْ بِهِ فِي ذَاكَ اليَوْمِ؟.

وَمَا أَضْعَفَ ابْنَ آدَمَ!!!.

أَجَلْ، مَا أَضْعَفَ ابنَ آدَمَ!!!.

وَمَا أَوْهَنَ حَبْلَهُ!!!.

فَمَعَ جَبَرُوْتِهِ وَسَطْوَتِهِ يَنْتَابُهُ أَحْيَاناً ضَعْفٌ شَدِيْدٌ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ ذا بَأْسٍ مَرِيْدٍ، فَيَقْنَعُ بِأَقَلِّ القَلِيْلِ الذِيْ كَانَ يَأْنَفُ مِنْ مِثْلِهِ مِنْ قَبْلُ حِيْنَمَا كَانَ يَلْبَسُ لَبُوْسَ ذِي الرَأيِ الرَشِيْدِ:

فِي أَحَدِ الأَيَّامِ حَرَّكَتْ أُمِّيْ رِجْلَيْهَا حَرَكَاتٍ خَفِيْفَةً لا يُدْرِكُهَا إلا دَقِيْقُ المُلاحَظَةِ لَطِيْفُهَا، فَلا تَسْأَلُوْا عَنِ الأَفْرَاحِ وَالتَبَاشِيْرِ

الـمِلاحِ، لَقَدْ فَرِحَتْ بـذَلِكَ أَعْمَاقُ القُلُوْبِ، وَطَارَتْ بـالـخَبَرِ الهَوَاتِفُ الـجَوَّالَةُ قَبْلَ الرُّكْبَانِ.

وَاليَوْمَ أَقُوْلُ لِمَنْ يَعْتَبِرُ، وَلِكُلِّ مَنْ يُلْقِي السَمْعَ وَهُوَ شَهِيْدٌ:

كَمْ مِنَّا مَنْ يُحَرِّكُ كُلَّ أَطْرَافِهِ كَيْفَ يَشَاءُ....

وَتَعْمَلُ كُلُّ حَوَاسِّهِ بِانْتِظَامٍ كَمَا يُرِيْدُ....

وَيَتَقَلَّبُ فِي نِعَمِ اللهِ آنَاءَ اللَيْلِ وَالنَهَارِ....

وَمَعَ ذَلِكَ لا يَشْعُرُ بِقِيْمَةِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ!!!

لِمَاذَا؟

وَلِمَاذَا؟

ثُمَّ لِمَاذَا؟

لأَنَّهُ بُنَيَّ آدَمَ ؛ يَتَنَعَّمُ مِنَ النِعَمِ بِمَا لا يُدْرِكُ قَدْرَهُ.

◉ مَنْ مِنَّا مَنْ إذا رَفَعَ يَدَهُ تَذَكَّرَ أَنَّهَا نِعْمَةٌ مِنَ اللهِ، فَحَمِدَ اللهَ عَلَيْهَا حَمْداً يُكَافِئُ نِعَمَهُ؟؟؟

◉ مَنْ مِنَّا إذا فَتَحَ عَيْنَيْهِ تَذَكَّرَ أَنَّهُمَا فَضْلٌ مِنَ اللهِ، فَشَكَرَ اللهَ عَلَيْهِمَا شُكْراً يُوَازِيْ أَفْضَالَهُ؟؟؟.

◉ مَنْ مِنَّا إذا حَرَّكَ لِسَانَهُ تَذَكَّرَ أنَّهُ هِبَةٌ مِنَ اللهِ ذِيْ التَفَضُّلِ والإنْعَامِ، فَلَمْ يَقُلْ بِهِ إلا حَقّاً وَصِدْقاً؟؟؟.

◉ مَنْ مِنَّا إذا حَمَلَتْهُ رِجْلاهُ تَذَكَّرَ أنَّهُمَا مِنْ آلاءِ اللهِ عَلَيْهِ، فَلَمْ تَحْمِلاهُ إلا إلى مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ؟.

إيْهِ إنَّنَا -عِبَادَ اللهِ - نَتَقَلَّبُ فِي أَرْضِ اللهِ الرَحْبَةِ، وَنَرْفُلُ فِيْ أَفْيَاءِ نِعَمِهِ وَآلائِهِ، وَلَكِنَّ الغَفْلَةَ دِثَارُنَا، وَالجُحُوْدَ لِحَافُنَا:

◉ كَمْ مِنْ مُنْعَمٍ عَلَيْهِ غيرُ شَاكِرٍ !

◉ وَكَمْ مِنْ مُبْتَلًى غيرُ صَابِرٍ !

◉ كَمْ يُوَالِيْ لَنَا رَبُّنَا -جَلَّ جَلالُهُ- المَكْرُمَاتِ وَالنِعَمَ، وَمَعَ ذَلِكَ لا نَحْمَدُهُ حَقَّ حَمْدِهِ، وَلا نَشْكُرُهُ حَقَّ شُكْرِهِ، وَهُوَ الذِيْ أَسْبَغَ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ مَا لا نُحْصِيْهِ، وَنَحْنُ مَعَ ذَلِكَ لَسْنَا نَسْتَحْيِيْ مِنْ كَثْرَةِ مَا نَعْصِيْهِ، فَسُبْحَانَ مَنْ نِعَمُهُ عَلَيْنَا لا تُحْصَى مَعَ كَثْرَةِ مَا يُعْصَى:

تَعْصِيْهِ وَهْوَ يَسُوْقُ نَحْوَكَ دَائِماً
مَا لا تَكُوْنُ لِبَعْضِهِ تَسْتَأْهِلُ (38)

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

ألا مَا أَحْلَمَ الـحَلِيْمَ رَبَّنَا العَفُوَّ الكَرِيْمَ بـنَا!!!

وَمَا أَجْدَرَهُ بـالشُكْرِ عَلَى جَمِيْلِ نَشَرَهُ، وَعَلَى قَبـيْحِ سَتَرَهُ، وَعَلَى عَـظِـيْـمِ مَا أَبْلَى، وَعَلَى كَـثِـيْـرِ مَا عَـفَـا !!!

وَهَكَذَا تَتَابَعَتِ الأَيـَّامُ، زِيَـارَاتٍ لأُمِّـيَ الـحَبـيْبَةِ فِي الـصَبَاحِ، وَزِيَارَاتٍ لأُمِّيَ الـحَبـيْبَةِ فِي الـمَسَاءِ، وَالسُؤَالُ الـذِيْ لا أَمَلُّ مِـنْ تَوْجِيْهِهِ لِلطَاقَمِ الطِبِّيِّ كُلَّ حَيْنٍ، وَلا يَتَغَيَّرُ، هُـــوَ:

(هَـلْ مِنْ أَخْبَارٍ جَدِيْدَةٍ لَدَيْكُمْ عَنْ أُمِّيْ؟)

وَكَانَ الـجَوَابُ مِنْهُمْ كُلَّ يَوْمٍ كَحَالِ أُمِّيْ لا يَتَغَيَّرُ هُوَ أَيْضاً:

(لا جَدِيْدَ؛ فَهِيَ كَحَالِـهَـا أَمْسِ).

وَأَقْبَلْتُ بَعْدَ مَغْرِبِ يَوْمِ الأَرْبِعَاءِ (23/ 5/ 1424هـ) عَلَى الْمُسْتَشْفَى لِزِيَارَةِ الْمَسَاءِ كَالْمُعْتَادِ، وَعِنْدَ بَابِ الْمُسْتَشْفَى رَنَّ هَاتِفِيْ، وَإذا بِاسْمِ أَبَرِّنَا بِأُمِّهِ (**إِبْرَاهِيْمَ**) يَظْهَرُ عَلَى الشَاشَةِ الصَغِيْرَةِ، وَلَنْ أَقُوْلَ لَكُمْ: إِنَّنِيْ صِرْتُ أَتَوَجَّسُ خِيْفَةً مِنِ اتِّصَالاتِهِ؛ لأَنَّ هَذِهِ ضَرِيْبَةُ بَذْلِ (**أَبِيْ نَوَّافٍ**) نَفْسَهُ بِرّاً بِوَالِدَتِهِ - جَزَاهُ اللهُ خَيْراً- وَلأَنَّهُ جَزَاءُ قُرْبِهِ الْمُسْتَمِرِّ مِنْهَا، وَحِيْنَ سَمِعْتُ صَوْتَهُ يَنْسَلُّ عَبْرَ الأَثِيْرِ مُنْكَسِراً يَقُوْلُ: اتَّصَلَ بِيَ مِنَ الْمُسْتَشْفَى مَنْ يُخْبِرُنِيْ بِأَنَّ أُمِّيْ فِي حَالَةٍ خَطِيْرَةٍ، اسْتَرْجَعْتُ، وَأَسْرَعْتُ الْخُطَى، وَفِي الْمَصْعَدِ سَأَلْتُ رَبِّيْ مِرَاراً الثَبَاتَ، وَيَمَّمْتُ صَوْبَ سَرِيْرِهَا مُسْرِعاً، وَحِيْنَ دَخَلْتُ بَابَ الغُرْفَةِ بَادَرَتْ عَيْنَايَ النَظَرَ إِلى الأَجْهِزَةِ الْمَوْصُوْلَةِ بِجَسَدِ أُمِّيْ، فإذا هِيَ لا تَحْمِلُ أَرْقَاماً مُتَحَرِّكَةً كَالْمُعْتَادِ، بَلِ ارْتَسَمَتْ عَلَيْهَا عَلامَاتُ اسْتِفْهَامٍ فَقَطْ....!!!

فَأَدْرَكْتُ أَنَّ أَمْرَ اللهِ الْمَحْتُوْمَ قَدْ وَقَعَ.....

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَسَأَلْتُ الـمُمَرِّضَةَ الـجَالِسَةَ قُبَالَةَ أُمِّيْ: (هَلْ مَاتَتْ أُمِّيْ؟)

فَقَالَتْ بِـبُـرُوْدٍ عَـجِـيْـبٍ: (لا أَدْرِيْ).

وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّهَا كَانَتْ تَدْرِيْ؛ لأَنَّ مِثْلَ ذَلِكَ الأَمْرِ لا يُمْكِنُ أَنْ يَخْفَى عَلَى مِثْلِهَا، وَلَكِنَّهَا تَحَاشَتْ إِخْبَارِيْ، وَلا أَعْرِفُ سَبَباً لِذَلِكَ، لَقَدْ زَعَمَتْ أَنَّ الطَبِـيْبَ وَحْـدَهُ هُـوَ الـذِيْ يَعْـرِفُ، فَـذَهَبَتْ لِتَـدْعُوَهُ، حَيْـثُ جَـاءَ مُسْرِعاً، فَأَعَدْتُ عَلَيْهِ السُؤَالَ الـخَطِيْرَ مِنْ قَلْبِـي الكَسِيْرِ: (هَـلْ مَاتَـتْ أُمِّيْ؟).

فَقَالَ بِلا تَلَعْثُمٍ وَلا تَهَيُّبٍ؛ شَأْنُـهُ شَأْنُ مَنْ لا يَعْنِـيْهِ الأَمْـرُ مِـنْ قَرِيْبٍ وَلا بَعِيْدٍ: (نَعَـمْ، مَاتَـتْ قَبْـلَ ثَـلاثِ دَقَـائِقَ، وَتَعَـالَ إِلَيْنَـا فِي الغُرْفَةِ الـمُجَاوِرَةِ لِـمَـلْءِ بَعْضِ البَيَاناتِ !!!).

وَقَفَلَ رَاجِعاً مِنْ حَيْثُ أَتَى، وَتَرَكَنِـيْ وَحْـدِيْ بِـجِـوَارِ أُمِّـيْ رَحِمَهَا اللهُ، وَكَأَنَّـهُ أَرَادَنِيْ أَنْ أُنَـفِّسَ عَنْ بَعْضِ مَشَاعِرِيْ.

وَقَدْ كَانَ مَا كَانَ؛ إِذِ اسْتَدَارَتْ بِـيَ الغُرْفَةُ....

وَضَاقَتْ بِـيَ الأَرْضُ البَسِـيْطَةُ بِـمَا رَحُبَتْ....

وَتَـوَارَى فَـضَاؤُهَا الرَحْـبُ الفَـسِيْحُ خَلْـفَ هَـوْلِ فَجِـيْعَتِـيْ بِـأُمِّيْ رَحِمَهَا اللهُ تَعَالَى:

كَـــأَنَّ بِـــلادَ اللهِ فِي ضِـــيْقِ خَاتَـــمٍ
عَـــلَيَّ فَـــمَا تَـــزْدَادُ طُـــوْلاً وَلا عَرْضَـــا[39]

بَلْ غَدَتِ الأَرْضُ الفَسِيْحَةُ مِنْ حَوْلِيْ كَسَمِّ الـخِيَاطِ، بَلْ رُبَّمَا كَانَتْ هِيَ أَضْيَقَ....

مَـــا فِي الوُجُـــوْدِ أَعَـــزُّ مِـــنْ أُمِّـــيْ وَقَـــدْ
فَارَقْتُهَـــا وَالْقَلْـــبُ غَـــيْرُ جَمَـــادِ
الْقَلْـــبُ يَحْتَمِـــلُ الـــوَدَاعَ فَـــإِنْ يَكُـــنْ
لِـــلأُمِّ فَهْـــوَ مُفَتِّـــتُ الأَكْبَـــادِ[40]

وَلَكِنَّ اللهَ بِـحَوْلِهِ وَطَوْلِهِ ثَـبَّتَنِيْ ؛ إِذْ تَذَكَّرْتُ أَنَّ الصَبْرَ الـحَقِـيْقِـيَّ إِنَّمَا يَكُوْنُ عِنْدَ الصَدْمَةِ الأُوْلَى، وَلَمْ أَنْسَ الثَوَابَ العَظِيْمَ لِلصَابِـرِيْنَ مِنْ رَبِّ العَالَمِيْنَ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ

﴿وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 155-157]، وَخَشِيْتُ أنْ تَجْتَمِعَ عَلَيَّ مُصِيْبَتَانِ: فَقْدُ أُمِّيْ رَحِمَهَا اللهُ، وَفَقْدُ الأَجْرِ؛ فَالمُصِيْبَةُ وَاحِدَةٌ، فإنْ كَانَ فِيْهَا جَزَعٌ فَهِيَ ثِنْتَانِ: (إنْ صَبَرْتَ جَرَى عَلَيْكَ القَدَرُ وَأَنْتَ مَأْجُوْرٌ، وَإنْ جَزِعْتَ جَرَى عَلَيْكَ القَدَرُ وَأَنْتَ مَأْزُوْرٌ). فَصَبَرْتُ، وَرَضِيْتُ بِقَدَرِ اللهِ المَحْتُوْمِ؛ (وَأَعْرَفُ النَاسِ بِاللهِ أَرْضَاهُمْ بِأَقْدَارِهِ).

وَتَجَلَّدْتُ وَلا شَامِتِيْنَ عِنْدِيْ، وَمَا قُلْتُ سَاعَتَهَا إلا مَا يُرْضِيْ رَبِّيْ -عَزَّ وَجَلَّ-: (**إنّا للهِ وَإنّا إلَيْهِ رَاجِعُوْنَ، وَالحَمْدُ للهِ عَلَى قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، اللّهُمَّ ارْحَمْهَا رَحْمَةً وَاسِعَةً، وَاجْعَلْ هَذَا اليَوْمَ خَيْرَ أيَّامِهَا، وَاغْفِرْ لَنَا وَلَهَا، وَلا تَفْتِنَّا بَعْدَهَا**).

وَلَمْ يَكُنْ بِيَدِيَ حِيْنَذَاكَ إلا أنْ أَصْبِرَ وَأَتَجَلَّدَ؛ فَإنَّمَا ابْتَلانَا بِالمُصِيْبَةِ المُنْعِمُ، وَأَخَذَ مِنَّا المُعْطِيْ.

وَبَعْدَ أنِ اسْتُنْفِدَتْ مِنْ قِبَلِنَا كُلُّ الحِيَلِ وَالأَسْبَابِ هَا هِيَ ذِيْ شَمْسُنَا السَاطِعَةُ قَدْ تَوَارَتْ بِالحِجَابِ:

إنَّ الطَبِـــــيْبَ بِـطِبِّـــــهِ وَدَوَائِـــــهِ
لا يَـــسْتَطِيْعُ دِفَـــاعَ مَحْـــذُوْرٍ أَتَـــى
مَـــا لِلْطَبِـــيْبِ يَمُـــوْتُ بِـالـــدَاءِ الـــذِيْ
قَـــدْ كَـــانَ يُـــبْرِيْ مِثْلَـــهُ فِيْمَـــا مَـــضَى
ذَهَـــبَ الـــمُدَاوِيْ وَالـــمُدَاوَى وَالـــذِيْ
جَلَـــبَ الـــدَوَاءَ وَبَاعَـــهُ وَمَـــنِ اشْـــتَرَى[41]

وَأَكْبَبْتُ عَلَى أُمِّيَ الـحَبِـيْبَةِ أُمْطِرُ رَأْسَهَا وَجَبِـيْنَهَا وَيَدَيْهَا قُبَلاً حَرَّى كَمَا لَـمْ أَفْعَلْ مِنْ قَبْـلُ؛ لأَنَّـهَا قُبَـلُ مُـوَدِّعٍ وَدَاعـاً أَبَـدِيّاً؛فَلَقَدْ مَـاتَتْ أُمِّيْ رَحِمَهَا اللهُ، وَالذِيْ بَقِـيَ أَمَامِيْ إنَّمَا هُوَ جَسَدٌ بِـلا رُوْحٍ، فَرُوْحُهَا قَدْ صَعَدَتْ لِبَارِئِهَا، وَمَاتَتْ مَعَهَا آمَالُ الأَمْسِ العَرِيْضَةُ وَأَمَانِـيْهِ:

وَدَّعْتُهَـــا أَمْـــسِ يَحْـــدُوْنِيْ بَـــصِيْصُ رَجَـــاً
بِـــأَنْ يَكُـــوْنَ غَـــدٌ خَيْـــراً لِمُنْتَظِـــرِ
وَعُـــدْتُ فِي لَـــهْفَةٍ أَرْجُـــو انْتِـــبَاهَتَهَا
وَإِذْ بِـهَـــا لا تُنَادِيْـــنِيْ: (هَـــلا عُمُـــرِيْ)

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَلا تَمُـــدُّ يَـــداً نَحْـــوِيْ تُعُـــانِقُنِيْ
وَلا تُـــسَائِلُ عَـــمَّا جَـــدَّ مِـــنْ خَـــبَرِيْ
وَجَـــدْتُهَا جَـــسَداً تَكْـــسُوْهُ صُفْرَتُـــهُ
نُـــوْراً رَهِيْفـــاً سَرَى مِـــنْ جِـــسْمِهَا النَظِـــرِ
فَـــمَا مَلَكْـــتُ انْكِـــبَاباً فَـــوْقَ جَبْهَتِهَـــا
وَخَـــدِّهَا وَالـــجَوَى فِي القَلْـــبِ كَالـــشَرَرِ[42]

أَجَـلْ، لَقَـدْ مَاتَـتْ أُمِّـيْ رَحِمَهَـا اللهُ، وَإِنْ لَـمْ يَقْتَنِـعْ بِـذَلِكَ (رَيَّانُ)[43] حَفِيْـدُهَا ذُوْ الأَعْـوَامِ الأَرْبَعَـةِ الـذِيْ مَـا زَال مُـصِرّاً عَـلَى أَنَّهَا لَـمْ تَمُتْ، وَأَنَّهَا سَتَعُوْدُ؛ لأَنَّهَا بِـزَعْمِهِ قَدْ قالتْ لَـهُ، وَلَمْ تَكُـنْ مِنْ قَبْلُ تَكْذِبُهُ: إِنَّنِـيْ سَأَذهَبُ إلى الرِيَاضِ، وَسَـأَعُوْدُ بعـدَ أيـَّامٍ إِنْ شاءَ اللهُ.

إِيْ وَرَبِّيْ لَقَدْ مَاتَتْ أُمِّيْ يَا (رَيَّانُ)، يَا مَنْ تَعَوَّدَ مُنْذُ سَنَتَيْنِ أَنْ لا يَنَامَ إلا فِي حِضْنِهَا، فَيُؤْنِسَ وَحْشَتَهَا حِيْنَ اخْتَارَتِ الـخَلْوَةَ، فَكَـانَ أَكْثَرُ وَقْتِهَا لا مُحَدِّثَ وَلا جَلِيْسَ وَلا أَنِيْسَ لَـهَا سِوَاكَ يَـا (رَيَّانُ)،

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

يَا مَنِ اسْتَأْثَرَتْكَ دُوْنَ سِوَاكَ مِنْ أَحْفَادِهَا وَأَسْباطِهَا بِالكَثِيْرِ مِنْ حُبِّهَا.

أَجَلْ، لَقَدْ ماتتْ أُمِّيْ يَا (رَيَّانُ)، وَلَنْ تَعُوْدَ إلَيْكَ، وَلَنْ تَنْعَمَ بِحِضْنِهَا، حَتَّى لَوْ كَانَتْ قَالَتْ لَكَ، وَهِيَ الصَدُوْقُ التِيْ لا تَكْذِبُ أَبَداً: إنَّهَا سَتَذْهَبُ إلى الرِيَاضِ، وَسَتَعُوْدُ بَعْدَ أيَّام؛ فَلَئِنْ كَانَتْ قَالَتْ لَكَ هَذَا، وَأَكَّدَتْهُ، لأفْعَالُهَا يَا (رَيَّانُ)، يَا نَدِيْمَ أُمِّيْ، كَانَتْ - بِلُغَةِ الحَالِ، لا بِلُغَةِ المَقَالِ - تَقُوْلُ لِغَيْرِكَ غَيْرَ ذَلِكَ؛ أَلا تَعْلَمُ يَا (رَيَّانُ) يَا حَبِيْبَ أُمِّيْ، أنَّهَا قَدْ أَعْطَتْ مَنِ اعْتَادَتْ أنْ يُشَارِكَهَا فِي رِزْقِهَا مِنَ المُحْتَاجِيْنَ نَفَقَاتِ شَهْرَيْنِ مُقَدَّماً؛ لأَنَّهَا كَانَتْ تَشْعُرُ بِأَنَّهَا لنْ تَعُوْدَ عَاجِلاً مِنَ الرِيَاضِ؟؟؟.

فَأَحْسَنَ اللهُ عَزَاءَنَا وَعَزَاءَكَ يَا (رَيَّانُ) يَا أَنِيْسَ أُمِّيْ، وَجَبَرَ اللهُ مُصَابَنَا وَمُصَابَكَ؛ فلَقَدْ فَقَدْنَا وَفَقَدْتَ عَزِيْزاً.

أَحْسَنَ اللهُ عَزَاءَنَا وَعَزَاءَكَ يَا (رَيَّانُ)؛ فَهَذَا أَمْرُ اللهِ وَقَضَاؤُهُ الذِيْ كَتَبَهُ عَلَى خَلْقِهِ.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَإِنَّا لله وإنّا إِلَيْهِ رَاجِـعُوْنَ رُجُـوْعَ مَـنْ سَـلَّمَ لأَمْـرِهِ، وَاسْتَـسْلَمَ لِـحُـكْمِـهِ، وَرَضِيَ بِـقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وَعَلِمَ أَنَّ مَقَادِيْرَ الآجَالِ عِنْـدَهُ مَعْلُوْمَةٌ، وَمَجَارِيَ الأَفْعَالِ مِـنْهُ غَيْرُ مَدْفُوْعَةٍ.

وَشَاخَ الطِفْلُ فَجْأَةً

عُدْنَا إلى الـمُسْتَشْفَى بَعْدَ سَاعَتَيْنِ لِتَسَلُّمِ جُثْمَانِ أُمِّيْ رَحِمَهَا اللهُ؛ لِنَقْلِهِ إلى القَصِيْمِ؛ لِنُوَارِيَهُ الثَرَى هُنَاكَ، وَقَدْ عَجِبْنَا كَيْفَ لا تَرِقُّ قُلُوْبُ العَامِلِيْنَ في مَرَاكِزِ حِفْظِ الـمَوْتَى بِالـمُسْتَشْفَيَاتِ؛ لَقَدْ رَأَيْنَا فِيْهِمْ مِنَ الفَظَاظَةِ وَالغِلْظَةِ مَا لا يُحْمَدُوْنَ عَلَيْهِ!!

عَجَباً لَهُمْ أَلا يَعْتَبِرُوْنَ؟ أَلا يَكْفِيْهِمْ الـمَوْتُ زَاجِراً وَوَاعِظاً؛ فَالـمَوْتُ ذُوْ عِبَرٍ لِمَنْ يَتَدَبَّرْ:

في عِبْرَةِ الـمَوْتِ آيَاتٌ لِمُعْتَبِرِ

وَفِيْ زَوَاجِرِهِ رَدْعٌ لِمُزْدَجِرِ(44)

أَمْ تُرَاهُمْ لا قُلُوْبَ لَهُمْ؟ أَمْ أَنَّ كَثْرَةَ الإمْسَاسِ تُقَلِّلُ، بَلْ رُبَّمَا تُمِيْتُ، الإِحْسَاسَ؟ وَهَذَا مَا أُرَجِّحُهُ فِيْهِمْ وَفِيْ أَكْثَرِ أَطِبَّاءِ العِنَايَةِ الـمُرَكَّزَةِ، وَاللهُ يَغْفِرُ لَنَا وَلَهُمْ:

وَمَنْ لَمْ يَعِظْهُ الـمَوْتُ لَمْ يَتَّعِظْ إِذَنْ

كَفَى وَاعِظاً بِالـمَوْتِ غَادٍ وَرَائِحُ(45)

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

حَمَلْنَا أُمِّيْ -رَحِمَهَا اللهُ- مُسَجَّاةً فِي السَّيَّارَةِ، وَوَجَدْتُ فِيْ نَفْسِيْ رَغْبَةً وَشَجَاعَةً بِأَنْ أَكُوْنَ أَقْرَبَ إِخْوَتِيْ إِلَيْهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا رَحِمَهَا اللهُ، وَقَدْ كُنْتُ أَبْعَدَهُمْ مِنْهَا مَكَاناً فِيْ حَيَاتِهَا؛ بِسَبَبِ بُعْدِ مَكَانِ عَمَلِيْ.

لَقَدِ اخْتَرْتُ أَنْ أَقُوْدَ السَّيَّارَةَ التِيْ تَحْمِلُ بَقِيَّةَ أُمِّيْ رَحِمَهَا اللهُ.

وَكَانَ الحَالُ طَوَالَ الطَرِيْقِ بِسَاعَاتِهِ الأَرْبَعِ مُغْرِياً بِالوُجُومِ وَالصَمْتِ مِنِّيْ وَمِنْ رَفِيْقِ سَفَرِيْ (أَبِيْ رَامِيْ) جَزَاهُ اللهُ خيراً، وُجُومٌ وَصَمْتٌ أَبْحَرَا بِسَفِيْنَةِ ذِكْرَيَاتِيْ عُقُوْداً خَمْسَةً مِنَ السِنِيْنَ المَاضِيَةِ، حِيْنَمَا كَانَ هُنَاكَ رَضِيْعٌ يَلْتَقِمُ ثَدْيَ أُمِّهِ الرَؤُوْمِ التِيْ تَضُمُّهُ إِلى حِضْنِهَا بِحُبٍّ وَحَنَانٍ، وَلَيْسَ فِي العَالَمِ وِسَادَةٌ أَنْعَمُ مِنْ حِضْنِ الأُمِّ، وَلا مَلاذٌ آمَنُ لِلطِفْلِ مِنْ حِضْنِ أُمِّهِ؛إِذْ لَنْ يُذْهِلَهَا عَنْهُ شَيْءٌ مِنْ شُؤُوْنِ الدُنْيَا مَهْمَا عَظُمَ شَأْنُهُ إلا قِيَامُ السَاعَةِ لَوْ قَامَتْ: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحجّ: 2].

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَيَمُرُّ قِطَارُ الذِكْرَيَاتِ بِهَا حَيْثُ يَمْرَضُ وَلِيْدُهَا حَتَّى يُشْرِفَ عَلَى الهَلاكِ، وَهُوَ لا يَكَادُ يُفَارِقُ كَتِفَهَا تَأَلُّماً وَبُكَاءً، وَهِيَ لا يَغْمَضُ لَهَا جَفْنٌ، وَلا يَرْقَأُ لَهَا دَمْعٌ، وَلا يَهْنَأُ لَهَا عَيْشٌ، وَلا يَسْكُنُ حُزْنُهَا، وَلا يَنْقَطِعُ هَمُّهَا، وَلَكِنَّهَا مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ تَصْبِرُ عَلَى تَعَبِهِ، وَتَأْسَى عَلَى شَقَائِهِ؛ لأَنَّهَا أُمُّهُ؛ وَمَنْ مِثْلُ الأُمَّهَاتِ؟.

أَلا مَا أَصْدَقَ قَوْلَ إِحْدَاهُنَّ عَنِ الوَالِدَاتِ كُلِّهِنَّ:

(مَا أَمَضَّ حَرَارَةَ قُلُوْبِهِنَّ!

وَأَقْلَقَ مَضَاجِعَهُنَّ!

وَأَطْوَلَ لَيْلَهُنَّ!

وَأَقْصَرَ نَهَارَهُنَّ!

وَأَقَلَّ أُنْسَهُنَّ!

وَأَشَدَّ وَحْشَتَهُنَّ!

وَأَبْعَدَهُنَّ عَنِ السُرُوْرِ!

وَأَقْرَبَهُنَّ مِنَ الأَحْزَانِ!!!).

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَتَدُوْرُ الأَيَّامُ دَوْرَتَهَا كَظِلِّ غَمَامَةٍ صَيْفِيَّةٍ، فَيَكْبُرُ طِفْلُهَا، فَيَصِيْرُ غُلاماً، ثُمَّ يَتَرَعْرَعُ فَتًى، ثُمَّ يَشْتَدُّ شَابّاً، ثُمَّ يَبْلُغُ أَشُدَّهُ رَجُلاً، وَلَكِنَّ أُمَّهُ ثَابِتَةٌ لا تَتَزَحْزَحُ فِي مُعَامَلَتِهِ؛ فَلَمْ يَتَخَلَّفْ حَنَانُهَا عَلَيْهِ لَحْظَةً وَاحِدَةً، وَلَمْ يَتَغَيَّرْ قَيْدَ أُنْمُلَةٍ إلا أَنَّهُ اِزْدَادَ رِقَّةً، وَلَمْ يَنْقُصْ، بَلْ هُوَ فِي ازْدِيَادٍ، حَتَّى وَهُوَ الذِيْ مَا فَتِئَ يُرَدِّدُ قَوْلَ الله تَعَالَى: ﴿**رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ**﴾ [الأحقاف: 15]....

أَجَلْ، إِنَّهُ قَدْ بَلَغَ أَشُدَّهُ، وَجَاوَزَ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً، وَأَمْسَى أَباً مَهِيْباً، وَمَعَ ذَلِكَ لا تَخَالُهُ فِي عَيْنِ أُمِّهِ إلا طِفْلاً:

مَا زِلْتُ طِفْلاً عِنْدَهَا حَتَّى وَإِنْ

أَلْقَيْتُ فِي بَحْرِ المَشِيْبِ شِبَاكِيْ(٤٦)

إِذْ مَا زَالَتْ أُمُّهُ حَرِيْصَةً عَلَى أَنْ يَأْكُلَ مِنْ هَذَا كَثِيْراً، وَأَنْ يَشْرَبَ مِنْ ذَاكَ كَأساً مَرِيْئاً، وَأَنْ يَزِيْدَ مِنْ هَذَا قَلِيْلاً، وَأَنْ لا يُبْقِيَ مِنْ ذَاكَ فَتِيْلاً !!!

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَكَمْ تَنَاوَلَ طَعَاماً شَهِيّاً طَيَّبَتْهُ يَدُ أُمِّهِ التيْ تَظَلُّ جَالِسَةً طَوَالَ وَقْتِهَا إلى جوَارِهِ تَمْلأُ مِنْهُ عَيْنَيْهَا، وَتَنْتَقِيْ لَهُ أَطْيَبَ أَطَايِبِ طَعَامِهَا بِيَدَيْهَا.

وَكَمْ تَنَبَّهَ عَلَيْهَا مِنْ نَوْمِهِ وَأَنَامِلُهَا الشَفِيْقَةُ الحَانِيَةُ تَتَأَكَّدُ مِنْ أنَّ الغِطَاءَ عَلَيْهِ ضَافٍ!.

وَكَمِ انْسَلَّتْ إلى غُرْفَتِهِ تَتَهَادَى في جُنْحِ الظَلامِ عَلَى أَطْرَافِ أَصَابِعِهَا تَتَحَسَّسُ طَرِيْقَهَا؛ لِتَتَأَكَّدَ مِنِ اعْتِدَالِ وِسَادَتِهِ، وَتَتَلَمَّسَ وُجُوْدَ كَأْسِ المَاءِ قُرْبَ فِرَاشِهِ!:

إنْ نَامَ لَمْ تَهْجَعْ وَطَافَتْ حَوْلَهُ

فَيَبِيْتُ مَكْلُوْءاً بِهَا مَرْصُوْدَا[47]

وَأَمَّا إنْ مَرِضَ فَلا تَسَلْ عَنْ حَالِهَا كَيْفَ سَيَصِيْرُ حِيْنَذَاكَ؛ فَإِنَّهُ سَيَمَسُّهَا أَضْعَافُ أَضْعَافِ مَا أَصَابَهُ مِنَ السِقَامِ، مَعَ شَيْءٍ غَيْرِ قَلِيْلٍ مِنَ الغَمِّ وَالهَمِّ:

إذا مَسَّني سُقْمٌ ثَوَتْ عِنْدَ مَرْقَدِيْ

لِزَاماً فَلَمْ تَبْرَحْهُ إلا مَعَ السُقْمِ

عَــلَى أنــَّهَا وَالــسُّقْمُ يَــبْرِيْ عِظَــامَهَا
تُحَــاوِلُ أنْ تُخْــفِيْهِ عَنِّــيَ بــالكَتْمِ
وَلَــوْ أنــَّهَا اسْــطَاعَتْ لَــدَى الــمَوْتِ خُفْيَــةً
لأَخْفَتْــهُ إشْــفَاقاً عَــلَيَّ مِــنَ الغَــمِّ[48]

وَهَا هِيَ ذِيْ مَا زَالَتْ تَحُوْطُهُ بِالعِنَايَةِ والاهْتِمَام؛ فَهِيَ تَخَافُ عَلَيْهِ مِنَ الحَرِّ، وَتَخْشَى عَلَيْهِ مِنَ القُرِّ؛ فَكَمْ سَأَلَتْهُ: أَلَيْسَ الجَوُّ حَارّاً؟ أَنُشَغِّلُ المُكَيِّفَ أَوِ المِرْوَحَةَ؟

وَكَمْ دَنَتْ مِنْهُ تَتَحَسَّسُ مَدَى سَمَاكَةِ ثِيَابِهِ فِي الشِتَاءِ؛ لِتَتَيَقَّنَ مِنْ قُدْرَتِهَا عَلَى أنْ تَحْمِيَهُ مِنَ البَرْدِ!!!

وَكَمْ قَضَى مِنَ الأَيَّامِ أيَّاماً مَاتِعَةً بِقُرْبِهَا، يَنْعَمُ فِيْهَا بِأَعْذَبِ الحَنَانِ، حَيْثُ كَانَتْ أُمُّهُ تَخْتَرِعُ فِيْهَا مِنْ جَدْبِ المَعِيْشَةِ خِصْباً خَصِيْباً، وَمِنْ سَمُوْمِ الصَيْفِ نَسِيْماً عَلِيْلاً، وَمِنْ زَمْهَرِيْرِ الشِتَاءِ دِفْئاً حَرِيْزاً، وَكُلُّ ذَلِكَ يَنْسَابُ كَالرَقْرَاقِ بَيْنَ الحَصَى مِنْ نَفْسٍ رَضِيَّةٍ نَقِيَّةٍ بِطَرَائِقَ عَجِيْبَةٍ تَسْلُبُ العُقُوْلَ، لا تَعْرِفُهَا وَلا تُتْقِنُهَا إلا قُلُوْبُ الأُمَّهَاتِ وَحْدَهَا.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

أُمِّـيْ إذا نَـادَيْـتُ يَـا أُمِّـيْ تَـضَـاءَلَتِ الـحُرُوْفُ مِـنْ جَلالِـكْ
أُمِّـيْ إذا حَـمَلَتْـنِيَ الأَشْـوَاقُ طَـارَتْ بِـيْ وَحَلَّـتْ فِي جَنَابِـكْ
أُمِّيْ إذا انْهَمَرَ الـسَحَابُ عَـلَى الرَوَابِـيْ يَـغَـارُ مِـنْ سَـيْبِ نَوَالِـكْ
هَـذِي الـجَـدَاوِلُ تَـحْـتَ أفْـيَاءِ النَخِيْـلِ كَأَنَّـهَا رِقَّـةُ حَالِـكْ
هَـذَا الـرَبِيـعُ جَـمَالُهُ وَنَـسِيْمُهُ وَعَـبِيْـرُهُ بَعْـضُ بَهَائِـكْ
هـَذَا الـمَـسَاءُ نُجُـوْمُهُ وَسُـكُوْنُهُ وَسَـنَاؤُهُ صِـنْـوُ خِلالِـكْ
أنْـتِ الـحَنـَانُ وَأيُّ تَـحْنَـانٍ سِـوَاهُ فَـإنَّهُ فَـيْـضُ حَـنَانِكْ
أنْـتِ الـنَقَـاءُ إذا تَـكَدَّرَتِ القُـلُوْبُ فَـلا نَقَـاءَ سِـوَى نَقَائِـكْ
أنْـتِ الـضِيَاءُ إذا ادْلَهَـمَّ الكَـرْبُ أَشْرَقَ حَوْلَنَـا نُـوْرُ ابْتِهَالِـكْ[49]

وَغَيْرُ ذَلِكَ كَثِيْرٌ مِـمَّا لَـمْ تَزَلْ تَفْعَلُهُ مَعَهُ مُنْذُ كَانَ فِي بِـدَايَةِ العَقْدِ الأَوَّلِ مِنْ عُمُرِهِ؛ لأنَّ قَلْبَهَا قَـلْبُ أُمٍّ؛ وَقُلُـوْبُ الأُمَّهَـاتِ لا تَـشِيْخُ أَبَـداً، وَلا تَعْجـزُ، وَلا تَهْرَمُ، وَلا تَشِيْبُ، وَلا تَتَوَانَى، وَلا تَضْعُفُ.

وَلَقَدْ كَادَتْ نَفْسُهُ تُوهِمُهُ أنَّهُ حَقّاً مَا زَالَ طِفْلاً؛ فَقَدِ اِسْتَمْرَأتْ رُوْحُـهُ الـحَنَانَ، وَأَلِفَتْـهُ، وَاسْـتَعْذَبَتِ نَفْـسُهُ الرِعَايَـةَ الـخَاصَّةَ وَالدَلالَ العَذْبَ وَالـحَفَاوَةَ الـمُمَيَّزَةَ:

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

طِفـــــــلٌ تَخطـــــــــَّى الأرْبَعِـــــــيْنْ
عَـــــــشْراً وَيَهْفُـــــــوْ لِلْحَنِـــــــيْنْ
لَمْ يَـــــرْوَ مِـــــنْ عَـــــذْبِ المَعِـــــيْنْ
لـــــَمْ يَـــــدْرِ عَـــــنْ كَـــــرِّ الســـنِيْنْ
يَـــــشْتَاقُ لِلْحِـــــضْنِ الأَمِـــــيْنْ
يَـــــأْوِيْ إلى الـــــرُكْنِ الرَكِـــــيْنِ
فَـــــالأُمُّ مَـــــأْوَى لِلْبَنِـــــيْنْ(50)

وَقَدْ صَدَقَ مَنْ قَالَ فِي حِكْمَتِهِ: (يَظَلُّ الرَجُلُ طِفْلاً حَتَّى تَمُوْتَ أُمُّـهُ، فإذا مَاتَتْ شَاخَ فَجْأَةً):

وَيَحْمِلُنِـــــي الـــــحَنِيْنُ إليْـــــكِ طِفْـــــلاً
وَقَـــــدْ سَـــــلَبَ الزَمَـــــانُ الـــــصَبْرَ مِنِّـــــيْ
وَأُلْقِـــــيَ فـــــوْقَ صَـــــدْرِكِ أُمْنِيَـــــاتِيْ
وَقَـــــدْ شَـــــقِيَ الفُـــــؤَادُ مَـــــعَ التَمَنِّـــــيْ
غَرَسْـــــتُ الـــــدَرْبَ أَزْهَـــــاراً بـــــعُمْرِيْ
فَخَيَّـــــبَتِ الـــــسِنِيْنُ اليَـــــوْمَ ظَـــــنِّيْ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَأَسْـــلَمْتُ الزَمَـــانَ زِمَـــامَ أَمْـــرِيْ
وَعِـــشْتُ العُمْـــرَ بِـالـــشَكْوَى أُغَنِّـــيْ
وَكَـــانَ العُمْـــرُ فِي عَيْنِـــيْكِ أَمْنـــاً
وَضَـــاعَ العُمْـــرُ يَـــوْمَ رَحَلْـــتِ عَنِّـــيْ[51]

فَهَأَنَـذَا لا أَسْتَطِيْعُ أَنْ أَلْتَفِتَ وَرَائِيْ؛ لأُلْقِيَ نَظْرَةً عَابِـرَةً عَلَى بَقِيَّةِ أُمِّيْ رَحِمَهَا اللهُ؛ لِئَلاَ يَرُوْعَهَا مَنْظَرِيْ بَعْدَ أَنْ شِبْتُ فَجْأَةً؛ فَمَـنْ كَانَ يُضْفِيْ عَـلَيَّ حَنَانـاً وَدَلالاً هَا هُـوَ ذا جَسَداً مُسَجًّى مَعِـيَ فِي السَيَّارَةِ... جَسَداً سُجِبَتْ عَلَيْهِ أَذْيَالُ الفَنَاءِ، وَيَـنْتَـظِرُهُ البِـلَى تَحْتَ الثَرَى بَعْدَ أَنْ فَـارَقَتْهُ الرُوْحُ الطَـيِّبَةُ:

يَـــا أَطْيَـــبَ الأَهْـــلِ رُوْحـــاً ضَـــمَّهُ بَـــدَنٌ
أَسْـــتَوْدِعُ اللهَ ذَاكَ الـــرُوْحَ وَالبَـــدَنا[52]

أُمَّـــاهُ..... آهٍ.....
ثُـمَّ آهٍ..... ثُـمَّ آهٍ..... ثُـمَّ آهٍ.....
لَقَدْ أَتـعْبَتُـكِ يَا أُمَّـاهُ بِـأَمْـرَاضِـيْ صَغِـيْراً....
وَلَقَدْ أَشْـقَـيْتُـكِ يَا أُمَّـاهُ بِـالـفِـرَاقِ كَبِـيْراً....

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

دَمْعَة عَلَى قَبْرِ أمي

كَـــمْ لَيْلَـــةٍ مِـــنْ لَيَالِـــي العُمْـــرِ دَاجِـــيَةٍ
تَنَـــامُ عَيْنِـــيْ وَيُـــضْنِيْ عَيْنَـــكِ الأَرَقُ

وَكَـــمْ سَـــكَبْتِ دُمُـــوْعَ الـــشَوْقِ سَـــاخِنَةً
مَـــدَى غِيَابِـــيْ وَأَدْمَـــى طَرْفَـــكِ القَلَـــقُ

يَـــا وَرْدَةً مَـــا تَـــسَنَّى عِطْرُهَـــا أَبَـــدَاً
يَفُـــوْحُ مِنْهَـــا عَـــلَى طُـــوْلِ الـــمَدَى عَبَـــقُ

يَـــا نَخْلَـــةً تَعْـــشَقُ الأَزْهَـــارُ طَلْعَتَهَـــا
بَهِـــيَّةً عِنْـــدَمَا يَبْـــدُوْ لَـهَـــا الفَلَـــقُ

يَـــا بُلْـــبُلاً بَـــذَرَ الأَنْـــغَامَ فِي شَجَنِـــيْ
مِـــنْ صَـــوْتِهِ نَاصِـــعُ التَحْنَـــانِ يَنْبَـــثِقُ

يَـــا كَوْثَـــرَاً كَـــمْ رَوَى قَلْبِـــيْ بِـــرِقَّتِهِ
فَمِنْـــهُ يَـــصْطَبِحُ الـــصَادِيْ وَيَغْتَبِـــقُ

يَـــا نَخْلَـــةً شَـــمَخَتْ فِي هَـــامِ قَافِيَتِـــيْ
وَعِطْفُهَـــا لِمَعَانِـــيْ هَاجِـــسِيْ طَبَـــقُ (٥٣)

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

رَحِمَكِ اللهُ يَا أُمِّيْ رَحْمَةً وَاسِعَةً، وَغَفَرَ لَكِ، وَأَسْكَنَكِ الفِرْدَوْسَ الأَعْلَى مِنَ الجَنَّةِ ؛ فَالقَلَمُ يَعْجِزُ عَنِ البَيَانِ، وَلَمْ يَبْقَ خَيْرٌ مِنَ الدُعَاءِ لَكِ بِالعَفْوِ وَالرِضْوَانِ مِنْ لَدُنِ الرَحِيْمِ الرَحْمَنِ ذي العَطَاءِ المَنَّانِ.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

أَلا مَنْ ذا لَهُ أُمٌّ كَأُمِّيْ؟

الأُمَّهَاتُ بِلا رَيْبٍ أَرَقُّ النَاسِ قُلُوْباً....

وَأَعْظَمُهُمْ رَحْمَةً....

وَأَصْدَقُهُمْ مَوَدَّةً....

وَلَكِنْ مَنْ لَهُ أُمٌّ كَأُمِّيْ؟

وَقَبْلَ أنْ يُقَالَ لِيْ كَمَا يُقَالُ لِابْنَتِيْ حِيْنَ تُعْجَبُ بِأَبِيْهَا: (**كُلُّ فَتَاةٍ بِأَبِيْهَا مُعْجَبَةٌ**)، أُؤَكِّدُ لَكُمْ أَنَّنِيْ لا أَعْرِفُ اليَوْمَ أُمّاً فِي الدُنْيَا كَأُمِّيْ رَحِمَهَا اللهُ؛ فَمَا أُمِّيْ كَمِثْلِ الأُمَّهَاتِ؛ وَلَنْ أَقُوْلَ مَا تَقُوْلُهُ الأَمْثَالُ: (مَا كُلُّ التُرَابِ عَسْجَدٌ، وَلا كُلُّ الحَصَى زَبَرْجَدٌ) ؛ لأنَّ فِي كُلٍّ خَيْراً.

وَلَكِنْ لا رَيْبَ عِنْدِيْ أَنَّ أُمِّيْ -رَحِمَهَا اللهُ- لَنْ يَسْتَطِيْعَ قَلَمِيْ مَهْمَا بَرَعَ حَامِلُهُ أنْ يُحِيْطَ بِمَا فِيْهَا مِنَ الشَمَائِلِ وَالمَآثِرِ وَالصِفَاتِ وَالمَزَايَا.

أَتْرُوْنَنِيْ سَأَقُوْلُ عَنْ أُمِّيْ -غَفَرَ اللهُ لَهَا-:

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

لَهَا فِي نَوَادِيْ كُلِّ مَكْرُمَةٍ ذِكْرُ[٥٤]

أَمْ أَهْتِفُ مُفَاخِراً بِهَا -طَيَّبَ اللهُ ثَرَاهَا-:

هِيَ النُبْلُ وَالإِحْسَانُ وَالزُهْدُ وَالطُهْرُ[٥٥]

أَمْ أَصْدَحُ مُنْشِداً فِيْهَا -رَفَعَ اللهُ مَنْزِلَتَهَا فِي الجَنَّةِ -:

هِيَ الجُوْدُ فِي أَعْلَى مَرَاتِبِ بَذْلِهِ

هِيَ المَكْرُمَاتُ البِيْضُ وَالشِيَمُ الغُرُّ[٥٦]

أَمْ أَشْدُوْ مُتَرَنِّماً فِيْهَا -فَرَّجَ اللهُ عَنْهَا كُرُبَاتِ الآخِرَةِ -:

هِيَ بَرَّةٌ تَهْوَى الجَمِيْلَ تَقَرُّباً

وَيَشُوْقُهَا فِي ذَلِكَ الأَجْرُ

هِيَ عَفَّةٌ تَأْبَى وَتَسْمُوْ عِزَّةً

عَنْ كُلِّ مَا لا يَرْتَضِي الطُهْرُ[٥٧]

إنَّ أُمِّيْ -رَحِمَهَا اللهُ- فَوْقَ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَلِذَلِكَ فَلا مِرَاءَ فِيْ أَنَّ الوَصْفَ مَهْمَا بَرَعَ الوَاصِفُ فِيْهِ نَثْراً أَوْ شِعْراً سَيَقْصُرُ قَطْعاً دُوْنَهَا؛ وَالبَلِيْغُ قَدْ يَعْيَا بِبَلاغَتِهِ إذا كَانَ مَنْ يُثْنِيْ عَلَيْهِ أَخَا البَحْرِ:

أُثْنِـــيْ عَلَيْـــكِ بـــمَا اسْـــتَطَعْتُ وَرُبَّـــمَا
يُعْيـــي البَلِـــيْغَ جَلالَـــةُ الـــمَمْدُوْحِ[٥٨]

مَاتَ الأَبُ، وَتَرَكَ بَنِيْنَ وَبَنَاتٍ صِغَاراً:

زُغْـــبَ الـــحَوَاصِلِ لا مَـــاءٌ وَلا شَـــجَرُ[٥٩]

أَكْبَرُهُمْ لَمْ يَبْلُغِ الحُلُمَ، وَأَصْغَرُهُمْ لَمْ يَبْلُغِ الفِطَامَ.

تَرَكَهُمْ أَبُوْهُمْ فِي زَمَنِ فَقْرٍ مُدْقِعٍ، فَقْرٍ أَذَابَ الشَحْمَ، وَأَكَلَ اللَحْمَ، وَبَرَى العَظْمَ....

فَمَنْ كَانَ لِهَؤُلاءِ الأُصَيْبِيَةِ الصِغَارِ بَعْدَ اللهِ تَعَالَى حِيْنَمَا رَحَلَ كَاسِبُهُمْ وَمُرَبِّيْهِمْ (أَبُوْهُمْ) رَحِمَهُ اللهُ؟

لَقَدْ قَيَّضَ اللهُ لَهُمْ أُمّاً رَؤُوْماً كَانَتْ لَهُمْ نِعْمَ الأُمُّ الحَفِيَّةُ، وَنِعْمَ الأَبُ العَطُوْفُ....

لَـــكِ اللهُ يَـــا أُمَّـــاهُ كَـــمْ كُنْـــتِ مَـــوْئِلاً
يَطُـــوْفُ اليَتَـــامَى حَوْلَـــهُ كَـــالبَرَاعِمِ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَكُنْـــتِ لَـــهُمْ عِنْـــدَ المَآسِـــيْ طَبِـــيْبَةً
تُـــدَاوِيْ جِـــرَاحَاتِ الأَسَـــى كَالـــمَرَاهِمِ[٥٥]

لَقَدْ كَانَتْ تِلْكَ الأُمُّ لَـهُمْ سَمَاءً ظَلِـيْـلَةً، وَأَرْضاً ذَلِـيْـلَةً...

وَلَقَدْ صَبَرَتْ عَلَى مِحَنِ الزَمَانِ وَعَلَى نَوَائِبِ الدَهْرِ أَمَلاً فِيْ أَنْ يُنْبِـتَهُمُ اللهُ - جَلَّ جَلالُهُ - نَبَاتاً حَسَناً:

فَكَمْ شَقِيَـتْ؛ لِيَرْتَاحُوْا.... وَكَمْ سَهِـرَتْ؛ لِـيَنَامُوْا....

وَكَمْ بَكَـتْ؛ لِيَضْحَكُـوْا....

وَكَـمْ جَاعَـتْ؛ لا لِـيَـشبَعُوا، بَـلْ رَجَـاءَ أَنْ يَتَخَفَّفُـوا مِـنْ لأْوَاءِ الـجُوْعِ.

وَكَمْ تَشَاغَلَتْ عَنْ مُشَارَكَتِـهِمْ فِي غَدَائِـهِمْ وَعَـشَائِـهِمْ رَغْبَةً فِي شِبَعِهِمْ، فلا يَبْقَى لَـهَـا شَيْءٌ، فَتَبِـيْتُ طَاوِيَةً لَيَالِـيَ مُتَتَابِـعَةً، وَهُـمْ فِي غَفْلَتِهِمْ بِـهَا لا يَشْعُرُوْنَ.

كَانَتْ إِنْ غَضِبُوا أَرْضَـتْهُمْ....

وَإِذَا سَـأَلُـوْا أَعْـطَـتْـهُمْ....

وَإِذَا سَـكَـتُـوْا ابْـتَدَرَتْـهُمْ....

لَقَدْ جَعَلَتْهُمْ قَلْبَهَا، وَمُخَّ عِظَامِهَا، وَطَرْفَهَا، وَعَيْنَيْهَا، فَحَفِظَتْ بِهِمْ أَمَانَةً فِي زَمَنٍ تَضِيْعُ فِيْهِ مِنَ الأَمِيْنِيْنَ الأَمَانَاتُ، وَكَفَلَتْ أَيْتَاماً فِي وَقْتٍ شَغَلَتْ كُلَّ إِنْسَانٍ نَفْسُهُ.

وَحِيْنَ حَقَّقَ اللهُ أَمَلَهَا فِيْهِمْ لَمْ يَزَلْ لِسَانُهَا لاهِجاً بِحَمْدِ اللهِ وَشُكْرِهِ عَلَى تَوْفِيْقِهِ، ومُرَدِّداً دُوْنَ فُتُوْرٍ وَلا وَهَنٍ:

(الحَمْدُ للهِ؛ لَيْسَتْ نَدَامَةً؛ فَقَدْ أَقَرَّ اللهُ عَيْنَيَّ بِهِمْ):

عِصَامِيَّةً كَانَتْ عَلَى حِيْنِ أَنَّهَا

لَهَا نَسَبٌ فَوْقَ النَقِيْصَةِ وَالذَّمِّ

وَأُمِّيَّةً كَانَتْ وَلَكِنَّ رَأْيَهَا

لَدَى مُعْضِلاتِ الدَّهْرِ فَوْقَ ذَوِيْ العِلْمِ[٦١]

أَتَدْرُوْنَ مَنْ هِيَ تِلْكَ الأُمُّ؟

إِنَّهَا أُمِّيْ.....

فَمَنْ مِنْكُمْ لَهُ أُمٌّ كَأُمِّيْ؟

لَقَدْ تَفَكَّرْتُ وَتَدَبَّرْتُ قَوْلَ الرَسُوْلِ ﷺ: (**لا تَزُوْلُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ:**

عَنْ عُمُرِهِ فِيْمَا أَفْنَاهُ؟.

وَعَنْ شَبَابِهِ فِيْمَا أَبْلاهُ؟.

وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أينَ اكْتَسَبَهُ؟ وَفِيْمَا أَنْفَقَهُ؟.

وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذا عَمِلَ فِيْهِ؟).

وَتَأَمَّلْتُ حَالَ (**أُمِّ عبدِالله**) وَكَيْفَ سَتُجِيْبُ عِنْدَ السُؤَالِ؟

فَوَجَدْتُهَا قَدْ أَفْنَتْ عُمُرَهَا صِيَاماً فِي النَهَارِ؛ لِحَرِّ يَوْمِ النُشُوْرِ، وَقِيَاماً فِي اللَيْلِ؛ لِوَحْشَةِ القُبُوْرِ.

كَانَتْ تَصُوْمُ فِي الهَوَاجِرِ حَتَّى تُشْفِقَ عَلَيْهَا، فَإذا رَجَوْنَاهَا أَنْ تَرْحَمَ ضَعْفَهَا قَالَتْ:

(**وَمَا يُدْرِيْكُمْ؟ رُبَّمَا لا أَصُوْمُ غَيْرَهُ !!!**).

وَكَانَتْ لا تَنَامُ مِنَ اللَيْلِ إلا أَقَلَّهُ؛ ومَنْ طَلَبَ المَحَلَّ الأَثِيْرَ هَجَرَ المَضْجِعَ الوَثِيْرَ، وَلِذَلِكَ كَانَتْ (**أُمُّ عبدِالله**) تَقْضِي اللَيْلَ

صَلاةً وَتَسْبِيْحاً وَدُعَاءً، وَسَمَاعاً لِلْقُرْآنِ الكَرِيْمِ مِنْ إِذَاعَتِهِ، وَمُتَابَعَةً لِبَرَامِجِهَا النَافِعَةِ؛ لأنَّ إذاعَةَ القرآنِ الكَرِيْمِ كَانَتْ نَافِذَتَهَا الوَحِيْدَةَ عَلَى العِلْمِ وَالعَالَمِ.

وَكَانَتْ لا يَفُوْتُهَا مَوْسُمُ الحَجِّ وَلا المَوَاسِمُ الفَاضِلَةُ لِلعُمْرَةِ، وَهِيَ قَادِرَةٌ، فَلَقَدْ حَجَّتْ وَاعْتَمَرَتْ عَشَرَاتِ المَرَّاتِ حَجّاً وَعُمْرَاتٍ عَنْ نَفْسِهَا وَعَنْ وَالِدَيْهَا، بَلْ حَتَّى عَنْ أَجْدَادِهَا، تَقَبَّلَ اللهُ مِنْهَا:

لِيَبْكِكِ كُلُّ يَوْمٍ صُمْتِ فِيْهِ
مُصَابَرَةً وَقَدْ حَمِيَ الهَجِيْرُ
لِيَبْكِكِ كُلُّ لَيْلٍ قُمْتِ فِيْهِ
إلى أنْ يَبْدُوَ الفَجْرُ المُنِيْرُ[62]

وَأَمَّا شَبَابُهَا فَلَمْ تَتَنَعَّمْ بِهِ، بَلْ أَبْلَتْهُ كَدْحاً وَدَأَباً عَلَى كَفَالَةِ الأَيْتَامِ فِي طُهْرٍ وَعَفَافٍ؛ فَلَقَدْ أَلْهَمَهَا اللهُ حُبَّ الطَاعَةِ، وَأَلْزَمَهَا كَنْزَ القَنَاعَةِ، فاشْتَرَتِ الآخِرَةَ بِالأُوْلَى:

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

أَنْـــضَيْتِ عَيْـــشَكِ عِفَّـــةً وَزَهَـــادَةً
وَطُرِحْـــتِ مُثْقَلَـــةً مِـــنَ الأَعْبَـــاءِ
بِـــصِيَامِ يَـــوْمِ القَـــيْظِ تَلْهَـــبُ شَمْـــسُهُ
وَقِـــيَامِ طُـــوْلِ اللَيْلَـــةِ اللَـــيْلاءِ
مَـــا كَـــانَ يَوْمـــاً بالغَبـــينِ مَـــنِ اشْـــتَرَى
رَغَـــدَ الجِـــنَانِ بِـعِيْـــشَةٍ خَـــشْنَاءِ
لَـــوْ كَـــانَ مِثْلَـــكِ كُـــلُّ أُمٍّ بَـــرَّةٍ
غَنِـــيَ البَنُـــوْنَ بِـــهَا عَـــنِ الآبَـــاءِ[63]

وَأمَّا الـمَـالُ فَمِنْ أَيْنَ لِـمِثْلِ (أُمِّ عبدِالله) مَالٌ؟

نَالَتْ مِنْهُ القَلِيْلَ مِنْ أَبْنَائِهَا وَبَنَاتِهَا، فَوَالله مَا كَانَتْ تَدَّخِرُهُ حَذَراً مِـنْ رَوْعَـةِ الزَمَـانِ، وَلا كَانَـتْ تَجْمَعُـهُ؛ لِتُكَـاثِرَ بِـهِ العَـشِيْرَةَ وَلا الـجِـيْرَانَ؛ لأنَّ اللهَ زَهَّدَهَا بِـالفَانِـيْ، وَرَغَّبَهَا في البَاقِـيْ:

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

يَـــا آمِـــرِيْ بِـــاقْتِنَاءِ الـــمَالِ مُجْتَهِـــداً
كَـيْـــمَا أَعِـــيْشَ بِمَالِـــيْ فِي غَـــدٍ رَغَـــدَا
هَبْنِـــيْ بِـــجُهْدِيَ قَـــدْ أَصْـــلَحْتُ أَمْـــرَ غَـــدٍ
فَمَـــنْ ضَمِيْنِـــيْ بِتَحْـــصِيْلِ الـــحَيَاةِ غَـــدَا[64]

وَلِذَلِكَ كَانَتْ (أُمُّ عبدِالله) مَا أَسْرَعَ أَنْ تَتَقَاسَمَ مَا يَأْتِيْهَا مِنْهُ مَعَ الأَرَامِلِ وَالأَيْتَامِ وَالمَسَاكِيْنِ وَالفُقَرَاءِ،(وَكُلُّ كَرِيْمٍ مُوْلَعٌ بِالمَكَارِمِ)، وَكَانَ لِسَانُ حَالِهَا يَقُوْلُ:

يَجُـــوْدُ عَلَيْنَـــا الـــخَيِّرُوْنَ بِمَالِـــهِمْ
وَنَحْـــنُ بِـــمَالِ الـــخَيِّرِيْنَ نَجُـــوْدُ[65]

وَبِذَلِكَ كَانَتْ -وَاللهِ- مِنْ أَنْعَمِ النَاسِ عَيْشاً؛ لأَنَّهَا تَحَلَّتْ بِالعَفَافِ، وَرَضِيَتْ بِالكَفَافِ، وَتَجَاوَزَتْ مَا يُخَافُ إِلى مَا لا يُخَافُ، فَقَنِعَتْ بِمَا أَعْطَاهَا رَبُّهَا، فَقَرَّتْ بِذَلِكَ عَيْنُهَا، وَرَضِيَتْ بِاليَسِيْرِ،فَطَابَتْ مَعِيْشَتُهَا.

كَانَتْ واللهِ سَرِيْعَةً بِمَا تُعْطِيْهِ، تُعْطِيْ مَسْرُوْرَةً بِمَا تَبْذُلُهُ، لا تَلْتَمِسُ بِذَلِكَ عَرَضَ الدُنْيَا؛ فَيَحْبَطَ عَمَلُهَا، وَلا تَطْلُبُ المُكَافَأَةَ العَاجِلَةَ بِالحُسْنَى؛ فَيَسْقُطَ فِي الأُخْرَى أَجْرُهَا.

كَانَ قَلِيْلُ الـمَالِ يَأْتِيْهَا عَفْواً صَفْواً، فَتُنْفِقُهُ مَخَافَةَ يَوْمٍ عَسِيْرٍ عَلَى الـمُحْتَاجَاتِ وَالـمُحْتَاجِيْنَ قُرْباً وَقَصْواً:

إِذَا اعْتَـــزَّ بِالـــمَالِ الرِجَـــالُ فَإِنَّنَـــا
نَـــرَى عِزَّنَـــا فِي أَنْ نَجُـــوْدَ وَأَنْ نَـــسْخُوْ
فَعِـــزُّ الـــوَرَى بِالـــمَالِ يُنْـــسَخُ عَاجِـــلاً
وَعِـــزُّ الفَتَـــى بِالـــجُوْدِ لَـــيْسَ لَـــهُ نَـــسْخُ(٦٦)

فَكَمْ مِنْ عَوْرَةٍ كَرِيْـمةٍ سَتَرَتْهَا.

وَكَمْ مِنْ خَلَّـةٍ مُحْتَاجَةٍ سَدَّتْهَا:

لِيَبْكِـــكِ كُـــلُّ مِـــسْكِيْنٍ فَقِـــيْرٍ
أَغَثْتِـــيْهِ وَقَـــدْ عَـــزَّ النَـــصِيْرُ(٦٧)

كَانَتْ إذا أَعْطَتْ أَعْطَتْ مِنْ سَعَةٍ.

وَإذا آسَـتْ آسَتْ مِنْ كَـفَـافٍ.

وَإذا آثَـرَتْ آثَـرَتْ مِـنْ قِـلَّـةٍ.

وَإذا كَانَ الـجَاهِلُ يَحْسَبُ الـمُتَعَفِّفِيْنَ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَعَفُّفِ، فَلَنْ يُلامَ مَنْ كَانَ يَرَى جُوْدَ (أُمِّ عبدِالله) فِي الإِنْفَاقِ إذا لَـمْ يَشُكَّ لَحْظَةً

فِي الاعْتِقَادِ بِـأَنَّهَا ذَاتُ يَسَارٍ وَغِنًى، وَمَا يَدْرِيْ هَذَا الـمَخْدُوْعُ أَنَّهَا مُقِلَّةٌ مُوَاسِيَةٌ ؛ لا تُنْفِقُ مِنْ فَضْلِ مَالِهَا، بَلْ جُوْدُهَا الفِطْرِيُّ وَكَوْنُهَا جَعَلَتْ هَمَّهَا الآخِرَةَ، لا الدُّنْيَا، هُمَا اللَّذَانِ صَيَّرَا غِنَاهَا فِيْ قَلْبِهَا، وَجَعَلاهَا تَتَقَاسَمُ مَعَ الـمُحْتَاجِ رِزْقَهَا الـمَقْسُوْمَ مِنْ رَبِّهَا، وَصَدَقَ مَنْ قَالَ:

إنَّ الـجَوَادَ الـذِيْ يَـسْخُوْ مِـنَ العَـدَمِ[68]

وَصَدَقَ أَيْضاً الذِيْ قَالَ:

لَـيْسَ جُـوْدُ الـجَوَادِ مِـنْ فَـضْلِ مَـالٍ

إنَّـمَا الـجُوْدُ لِلْمُقِـلِّ الـمُوَاسِيْ[69]

فَهَلْ تَدْرُوْنَ مَنْ تَكُوْنُ (أُمُّ عبدِالله)؟

إنَّهَا أُمِّـيْ....

فَمَنْ ذا عِنْدَهُ أُمٌّ كَأُمِّيْ؟

كَانَتْ (أُمُّ عبدِالله) سَمْحَةً، سَهْلَةً، هَيِّنَةً، لَيِّنَةَ الجَانِبِ، مُتَوَاضِعَةً لا يَجِدُ الكِبْرُ إلى قَلْبِهَا سَبِيْلاً، وَلا تَعْرِفُ الخُيَلاءُ إلى حَالِهَا دَلِيْلاً؛ لأَنَّهَا لا تَنْسَى مُبْتَدَاهَا، وَلا تَغْفُلُ عَنْ مُنْتَهَاهَا، وَلا تَبِيْعُ دِيْنَهَا بِدُنْيَاهَا، فَكَانَتْ نَقِيَّةً صَافِيَةً؛ وَإِنَّهُ لَـ:

- **(بِئْسَ العَبْدُ عَبْدٌ تَكَبَّرَ وَزَهَا، وَنَسِيَ المُبْتَدَأَ والمُنْتَهَى.**
- **بِئْسَ العَبْدُ عَبْدٌ تَخَيَّلَ وَاخْتَالَ، وَنَسِيَ الكبيرَ المُتَعَال.**
- **بِئْسَ العَبْدُ عَبْدٌ بَاعَ الدِيْنَ بِالدُنْيَا.**
- **بِئْسَ العَبْدُ عَبْدٌ خَلَطَ الدِيْنَ بِالشُبُهَاتِ.**
- **بِئْسَ العَبْدُ عَبْدٌ يَرُدُّهُ الرُعْبُ عَنِ الحَقِّ).**
- كَانَتْ (أُمُّ عبدِالله) طَيِّبَةَ النَفْسِ، ظَرِيفَةَ المَعْشَرِ، تَرْضَى بِالقَلِيْلِ، وَيَغْمُرُهَا الكَثِيْرُ.

لَهَا خَلائِقُ بِيْضٌ لا يُغَيِّرُهَا
صَرْفُ الزَمَانِ كَمَا لا يَصْدَأُ الذَهَبُ[٧٥]

- كَانَتْ (أُمُّ عبدِالله) تَأْكُلُ مَا وَجَدَتْ، وَتَحْمَدُ رَبَّهَا عَلَيْهِ وَتَشْكُرُهُ، وَلا تَسْأَلُ عَمَّا فَقَدَتْ، وَلا تُتْبِعُهُ نَفْسَهَا، وَلا تَنْتَظِرُهُ.

◉ كَانَتْ (أُمُّ عبدِالله) مِنَ الذينَ إذا أُعْطُوْا شَكَرُوْا، وَإذا ذُكِّرُوْا ذَكَرُوْا، وَإذا أَحْسَنُوْا ازْدَادُوْا، وَإذا أَسَاؤُوْا اسْتَغْفَرُوْا، وَإذا ابتُلُوْا صَبَرُوْا، لَمْ أرَ مِثْلَهَا اصْطِبَاراً؛ فَقَدْ كُنْتُ أَرَى دَلائِلَ الأمْرَاضِ عَلَيْهَا بَادِيَةً لا تَخْفَى عَلى الأَعْيُنِ الرُمْدِ، فَإذا سَألْتُهَا: (عَسَى مَا شَرٌّ يَا أمَّ عبدِ الله؟) قَالَتْ: أَبَداً، وَالحَمْدُ لله؛ فَنِعَمُهُ عَلَيْنَا أَكْثَرُ مِنْ أنْ تُحْصَى:

فَفِي العُسْرِ لَمْ يَجْهَرْ بِشَكْوَى لِسَانُهَا
وَفِي اليُسْرِ لَمْ يَلْعَبْ بِأَعْطَافِهَا الكِبْرُ
وَشَرُّ الصِفَاتِ أنْ يُصِيْبَكَ حَادِثٌ
فَتَجْأَرَ بِالشَكْوَى وَفِيْ وُسْعِكَ الصَبْرُ[71]

◉ كَانَتْ (أُمُّ عبدِالله) شَاكِرَةً لِمَنْ أَعْطَى، غَافِلَةً عَمَّنْ مَنَعَ أوْ أَعْطَى قَلِيْلاً وَأَكْدَى.

◉ كَانَتْ (أُمُّ عبدِالله) عَفَّةَ اللِسَانِ، طَاهِرَةَ الجَنَانِ، طَوِيْلَةَ البَاعِ بِالإحْسَانِ، أَوْجَدَتْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ القُلُوْبِ نَسَباً؛ لأَنَّهَا جَعَلَتْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ رَبِّهَا سَبَباً، فَأَحَبَّهَا حُبّاً صَادِقاً كُلُّ مَنْ لَقِيَهَا، بَلْ كُلُّ مِنْ

سَمِعَ بِـهَا، وَلَمْ يَكُنْ لَـهَا مَنْ يَقْلِيْهَا؛ لأَنَّهَا لا تَحْمِلُ إلا الـخَيْرَ في قَلْبِـهَا.

◉ كَانَتْ (أُمُّ عبدِالله) لا تَحْسُدُ الأَخْيَارَ، وَلا تَعِـيْبُ الأَشْرَارَ؛ قَنَاعَتُهَا طَهَّرَتْ قَلْبَهَا مِـنَ الـحَسَدِ، وَحِرْصُـهَا عَـلَى مُـدَارَاةِ النَـاسِ عَفَّ بِـلِسَانِهَا عَنِ الفَدَدِ، وَرِضَاهَا بِـقَضَاءِ الله مَنَعَهَا مِنْ أنْ تَسْخَطَ عَلَى أَحَدٍ، وَجُوْدُهَا عَلَى البَعِـيْدِ وَالقَرِيْبِ جَذَبَ إلَيْهَا كُلَّ القُلُـوْبِ، لا يُمْكِـنُ أنْ تَـسْمَعَهَا يَوْمـاً تَـذْكُرُ أَحَـداً بِـسُوْءٍ، وَلا تَقُـوْلُ: هَـذَا أَعْطَى، وَذَاكَ مَنَعَ؛ لأَنَّـهَا كَانَتْ أَعْقَلَ مِنْ أنْ تُسَلِّطَ عَلَى حَسَنَاتِهَا مَا يُذْهِبُهَا.

وَعَـلَى الـرَغْمِ مِـنْ أنَّ الـمَرْءَ مَـعَ تَقَـدُّمِ عُمُـرِهِ يَتَغَـيَّرُ مِزَاجُـهُ، فَيَغْضَبُ لِمَا لا يُغْضِبُ، وَيَضِـيْقُ ذَرْعاً بالطِفْلِ الصَغِيْرِ، وَيُلْقِيْ بَالاً لِلْيَسِيْرِ وَلِلْكَثِـيْرِ، لَكِـنَّ (أُمَّ عبـدِالله) كَانَـتْ بِـخِلافِ ذَلِـكَ كُلِّـهِ؛ كَانَـتْ تَتَـأَلَّفُ الـصَغِـيْرَ وَالكَبِـيْرَ، وَتَفْـرَحُ مِـنَ الـزُوَّارِ بِـالـجَمِّ الغَفِـيْرِ، صَدْرُهَا أَوْسَعُ مِنْ دَارِهَا، تَرَى القَادِمَ إلَيْهَا صَاحِبَ فَـضْلٍ عَلَيْهَا.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

فَهَلْ تَعْرِفُوْنَ أَحَداً خَرَجَ مِنَ الدُنْيَا وَقَدِ اتَّفَقَ عَلَى حُبِّهِ الأَبْنَاءُ وَالبَنَاتُ، وَالأَحْفَادُ وَالأَسْبَاطُ، وَزَوْجَاتُ الأَبْنَاءِ وَأَزْوَاجُ البَنَاتِ، وَسَائِرُ الأَقَارِبِ وَالجِيْرَانِ وَالمَعَارِفِ؟

إِنَّهَا أُمِّيْ....

فَهَلْ كُلُّ لَهُ أُمٌّ كَأُمِّيْ؟

ﷺ يَتَفَاوَتُ النَاسُ فِي حِرْصِهِمْ عَلَى طَرْقِ أَبْوَابِ الخَيْرِ وَالتَفْتِيْشِ عَنْ سُبُلِهِ:

- فَمِنْ مُقِلٍّ وَمِنْ مُكْثِرٍ.
- وَمِنْ غَافِلٍ عَنْ جَوَامِعِ البِرِّ وَأُصُوْلِهِ، وَمِنْ مُتَيَقِّظٍ لِجَوَامِعِهِ وَدَقَائِقِهِ وَفُرُوْعِهِ.
- وَمِنْ مُمْسِكٍ بِمَفَاتِيْحِ الإِحْسَانِ، وَمِنْ مُضَيِّعٍ لَهَا.
- وَمِنْ مُبَادِرٍ لِاهْتِبَالِ فُرَصِ الأَعْمَالِ الصَالِحَةِ كُلِّهَا أَوْ جُلِّهَا، وَمِنْ مُسَوِّفٍ فِيْهَا.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

◉ وَمِنْ مُشَمِّرٍ لِلْقِيَامِ بِـيَسِيْرِ مَا يَجْلِبُ الثَوَابَ وَعَسِيْرِهِ، وَمِنْ مُفَرِّطٍ وَغَيْرِ مُبَالٍ بِـيَسِيْرِهِ بَلْهَ عَسِيْرِهِ.

وَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ أَبْوَابِ الـخَيْرِ وَجَوَامِعِ البِـرِّ وَمَفَاتِيْحِ الإِحْسَانِ وَيَسِيْرِ مَا يَجْلِبُ جَزِيْلَ الثَوَابِ، إنَّ مِنْ أَعْظَمِهَا الشَفَاعَةَ الـحَسَنَةَ فِي قَضَاءِ حَوَائِجِ النَاسِ وَدَفْعِ الكَرِيْهَةِ عَنْهُمْ؛ قَالَ اللهُ تعالى: ﴿**مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا**﴾ [النساء: 85].

وَقَالَ رَسُوْلُنَا : (**أَفْضَلُ الصَدَقَةِ صَدَقَةُ اللِسَانِ، قَالُوْا: يَا رَسُوْلَ اللهِ وَمَا صَدَقَةُ اللِسَانِ؟ قَالَ: الشَفَاعَةُ؛ يُفَكُّ بِـهَا الأَسِـيْرُ، وَيُحْقَنُ بِـهَا الـدَمُ، وَيُجْرَى بِـهَا الـمَعْرُوْفُ وَالإِحْسَانُ إلى الأَخِ الـمُسْلِمِ**)، وَقَالَ : (**اِشْفَعُوْا تُؤْجَرُوْا**).

وَلا يَخْلُوْ زَمَانٌ وَلا مَكَانٌ مِنْ أَقْوَامٍ يَعْمُرُ الـمَوْلَى -جَلَّ جَلالُهُ- قُلُوْبَهُمْ بِـحُبِّ الشَفَاعَةِ وَالـحِرْصِ عَلَى بَذلِـهَا وَالقِيَامِ بِـهَا، حَتَّى كَأَنَّهُمْ إنَّمَا خُلِقُوْا لِلشَفَاعَةِ، قَالَ : (**إنَّ للهِ عِبَاداً خَلَقَهُمْ لِحَوَائِجِ النَاسِ، يَفْزَعُ النَاسُ إلَيْهِمْ، أُوْلَئِكَ الآمِنُوْنَ يَوْمَ القِيَامَةِ**).

وَأُمِّيْ -رَحِمَهَا اللهُ- أَحْسَبُ أَنَّهَا كَانَتْ مِمَّنْ خَلَقَهُمُ اللهُ لِحَوَائِجِ النَاسِ؛ فَقَدْ كَانَ النَاسُ الذِيْنَ يَعْرِفُوْنَهَا مِنَ الأَقَارِبِ والأَبَاعِدِ يَفْزَعُوْنَ إِلَيْهَا؛ لِحَوَائِجِهِمْ، عَظِيْمِهَا وَجَلِيْلِهَا، وَهِيَ -رَحِمَهَا اللهُ- لا تَتَوَانَى فِي بَذْلِ جَاهِهَا، وَلا سِيَّمَا عِنْدَ مَنْ يَرَى أَنَّ مِنَ البِرِّ بِهَا أَنْ يَقُوْلَ لَهَا دَائِماً: (سَمْعاً وَطَاعَةً، وَأَبْشِرِيْ)، وَلَدَى مَنْ لَمْ يَأْلَفْ لِسَانُهُ أَنْ يَقُوْلَ لَهَا بِحَالٍ مِنَ الأَحْوَالِ: (لا)، وَلِذَلِكَ كَانَتْ -رَحِمَهَا اللهُ- لا تَدَّخِرُ وُسْعاً فِي القِيَامِ بِالشَفَاعَةِ وَالحِرْصِ عَلَى نَجَاحِهَا، كَيْفَ لا وَقَدْ تَوَافَرَ لِشَفَاعَتِهَا شَرْطَا النَجَاحِ بِإِذْنِ اللهِ: (الوَجَاهَةُ وَالجُوْدُ):

وَأَقْرَبُ مَا يَكُوْنُ النُجْحُ يَوْماً
إِذَا شَفَعَ الوَجِيْهُ إِلى الجَوَادِ[٧٢]

فَالشَافِعُ جَوَادٌ وَوَجِيْهٌ، وَالمَشْفُوْعُ لَدَيْهِ وَجِيْهٌ وَجَوَادٌ أَيْضاً.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَلَقَدْ كُنْتُ كَثِيْراً مَا أَلْحَظُ أنَّهُ تَتَنَازَعُ فِي أَعْمَاقِ أُمِّيْ - رَحِمَهَا اللهُ- سَجِيَّتَانِ كَرِيْمَتَانِ: حُبُّ الشَفَاعَةِ، وَالحَيَاءُ مِنْ كَثْرَةِ مَا تَطْلُبُهَا، فَكَمْ قَالَتْ لِيْ، وَمَاءُ الحَيَاءِ يَتَرَقْرَقُ مِنْ أَسَارِيْرِ وَجْهِهَا أَشَدَّ مِنَ العَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، كَمْ قَالَتْ -رَحِمَهَا اللهُ-: (فُلانَةٌ طَلَبَتْ مِنِّيْ أنْ أُكَلِّمَكَ بِشَأْنِ كَذَا، وَلَكِنْ -والله- إنِّيْ مُسْتَحْيِيَةٌ مِنْكَ)، فَحِيْنَذَاكَ يَتَحَقَّقَ مُرَادُهَا، وَعِرْضُهَا مَصُوْنٌ، وَأَجْرُهَا مَوْفُوْرٌ.

وَقَدْ صَدَقَ ابْنِيْ (أَنَسٌ) الذِيْ لا زَالَ يَنْعَمُ بِثَمَرَةِ شَفَاعَةٍ مِنْ شَفَاعَاتِهَا الحَمِيْدَةِ، صَدَقَ وَأَصَابَ حِيْنَمَا قَالَ عَنْ أُمِّيْ -رَحِمَهَا اللهُ- مُتَحَسِّراً عَلَى وَفَاتِهَا:

(لَقَدْ مَاتَ الشَفِيْعُ الذِيْ لا يُرَدُّ):

بُنَيَّ رِفْقاً بِحَالِيْ إنَّنِيْ دَنِفٌ
قَلْبِيْ شَجِيٌّ كَئِيْبٌ كَاسِفُ البَالِ
العَيْنُ تَبْكِيْ فِرَاقاً لا رُجُوْعَ لَهُ
وَالقَلْبُ مِنْ بَعْدِ أُمِّيْ لَيْسَ بِالسَالِيْ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَأنْـــتَ تَنْكَـــأُ جُرْحِـــيْ حِـــيْنَ تَـــذْكُرُهَا

وَفَـــقْدُ أَمْثَالِـــهَا بُـــؤْسٌ لأمْثَالِـــيْ(٧٣)

تِلْكَ هِـيَ أُمِّيْ.....

فَهَلْ تَلْقَوْنَ فِي الدُنْيَا كَأُمِّيْ؟؟؟

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

ماذا فَقَدْتُ بِفَقْدِ أُمِّيْ؟

أَمْعَنْتُ فِي التَفَكُّرِ فِي الإِجَابَةِ عَلَى هذا السُؤَالِ:

مَاذا فَقَدْتُ بِفَقْدِ أُمِّيْ رَحِمَهَا اللهُ؟؟؟

أَتَدْرُوْنَ لِمَاذَا؟

لأَنَّنِيْ قَدْ رَأَيْتُ فَقْدَهَا مُخْتَلِفاً عَنْ فَقْدِ أَيِّ مَفْقُوْدٍ، بَلْ إِنَّنِيْ وَجَدْتُنِيْ فَقَدْتُ كُلَّ شَيْءٍ بِفَقْدِ أُمِّيْ رَحِمَهَا اللهُ:

كَانَ فِي الدَارِ دَوْحَةٌ خَضْرَاءُ وَارِفَةُ الظِلالِ، تَتَهَافَتُ عَلَيْهَا كُلَّ حِيْنٍ وَدُوْنَ اسْتِئْذَانٍ الطُيُوْرُ المُقِيْمَةُ وَالمُهَاجِرَةُ، وَيَقْتَسِمُ مَعَهَا أَهْلُ الدَارِ طَعَامَهُمْ وَشَرَابَهُمْ وَالمَأْوَى، فَيَأنَسُ كُلٌّ بِكُلٍّ، فَلا الدَارُ الحَاضِنَةُ تَسْتَغْنِيْ بِشَيْءٍ عَنْ غِنَاءِ طُيُوْرِهَا، وَلا الطُيُوْرُ الآوِيَةُ تَزْهَدُ بِدَوْحَتِهَا....

وَفَجْأَةً اجْتُثَّتِ الشَجَرَةُ مِنْ أَصْلِهَا؛ فَمَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ، فَلا بُدَّ لِلْطُيُوْرِ عِنْدَ ذَاكَ مِنْ أَنْ تُهَاجِرَ مُرْغَمَةً بِلا اخْتِيَارٍ، وَأَنَّى لَهَا بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ تَجْتَمِعَ فِيْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ؟

وَهَكَذَا هِيَ أُمِّيْ رَحِمَهَا اللهُ؛ كَانَتْ دَوْحَتَنَا الغَنَّاءَ، وَخَيْمَتَنَا الوَارِفَةَ الظِلالِ؛ إذ كَانَ يَجْتَمِعُ حَوْلَهَا أَوْلادُهَا وَأَحْفَادُهَا وَأَسْبَاطُهَا كُلَّ حِيْنٍ وَدُوْنَ حَاجَةٍ إلى مِيْعَادٍ، وَبلا شُعُوْرٍ بِأَدْنَى حَرَجٍ، وَلا تَسْأَلُوْا عَنْ مِقْدَارِ سُرُوْرِهَا إذا اِلْتَمَّ شَمْلُهُمْ؛ فَذَلِكَ يَوْمُ عِيْدِهَا الذِيْ لا تَسْتَطِيْعُ فِيْهِ كِتْمَانَ سَعَادَتِهَا.

وَلَنْ يَعْسِرَ عَلَى أَحَدٍ اكْتِشَافُ غَمِّهَا إنْ غَابَ بَعْضُهُمْ؛ لأَنَّ ذَلِكَ مَا لا يُطِيْقُ قَلْبُهَا المُرْهَفُ الحَنُوْنُ إخْفَاءَهُ، وَلا لِسَانُهَا العَذْبُ تَجَاهُلَهُ، فَكَمْ سَتَسْمَعُهَا تَقُوْلُ: (إيْهِ، وَاللهِ مَا يَنْقُصُنَا إلا فُلانٌ أَوْ فُلانةٌ).

وَأَمَّا أَوْلادُهَا فَهُمُ الضِيَاءُ لِنَاظِرَيْهَا، وَهُمُ الأَكُفُّ لِسَاعِدَيْهَا، بَلْ هُمْ كَبِدُهَا، وَثِمَارُ قَلْبِهَا، وَعِمَادُ ظَهْرِهَا، وَهُمْ عِنْدَهَا مُتَسَاوُوْنَ، لا تَعْرِفُ أَيُّهُمْ هُوَ أَقْرَبُ إلى قَلْبِهَا؛ إذ هُمْ لَدَيْهَا كَالحَلَقَةِ المُفْرَغَةِ لا تَدْرِيْ أَيْنَ طَرَفَاهَا، أَحَبُّهُمْ إلَيْهَا الغَائِبُ حَتَّى يَعُوْدَ، وَالمَرِيْضُ حَتَّى يَبْرَأَ، وَالصَغِيْرُ حَتَّى يَكْبُرَ.

وَبِرَحِيْلِ أُمِّيْ -رَحِمَهَا اللهُ- أَلا يُخْشَى عَلَيْنَا أَنْ نَصِيْرَ كَطُيُوْرِ تِلْكَ الدَوْحَةِ تَفَرُّقاً وَشَتَاتاً؟

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

بَعْـــدَ أُمِّـــيْ سَـــيُنْكِرُ الـــحُبُّ دَارَا
وَالعَـــصَافِيْرُ تَهْجُـــرُ الأَوْكَـــارَا
وَدِيَـــارٌ كَانَـــتْ قَـــدِيْماً دِيَـــارَا
سَـــتَرانا كَـــمَا نَرَاهَـــا قِفَـــارَا[٧٤]

وَإِنِ الْتَقَيْنَا فَأَيْنَ تِلْكَ الرُوْحُ الصَافِيَةُ وَالنَفْسُ الطَيِّبَةُ التيْ كَانَتْ تُضْفِيْ عَلَى اللِقَاءِ سَعَادَةً وَحُبُوْراً؟

أَرَاجِـــعَةٌ أَيَّـــامُنَـــا مِثـــلَ عَهـــدِهَا
وَلَـــسْتُ عَلَـــيْهَا لَـــوْ أَرَدْتُ قَـــدِيْرَا[٧٥]

وَبِرَحِيْلِ أُمِّيْ -رَحِمَهَا اللهُ- أَلا نَخَافُ أَنْ تُلْبِسَنَا الدُنْيَا لِحَافَهَا الخَشِنَ، وَتُكَشِّرَ فِيْ وُجُوْهِنَا عَنْ وَجْهِهَا الكَئِيْبِ، فَيُفْضِيَ جَمْعُهَا إِلى شَتَاتٍ، وَصَفَاؤُهَا إِلى كَدَرٍ:

فَـــإِذا الدُنـــيْا كَـــمَا نَعْرِفُهَـــا
وَإِذا الأَحْبَـــابُ كُـــلٌّ فِيْ طَرِيْـــقْ[٧٦]

لَقَدْ فَقَدْنَا بِفَقْدِكِ يَا أُمَّاهُ مَا لا يُعَوَّضُ، فَتَبَدَّلَتْ مِنْ بَعْدِكِ حَالُنَا؛ فَلا بِنَاءَ بِلا أَسَاسٍ، وَلا ضِيَاءَ بِلا قَمَرٍ:

كُنَّـــا كَـــأَنْجُمِ لَيْـــلٍ بَيْنَهَـــا قَمَـــرٌ

يَجْلُـــو الـــدُجَى فَهَـــوَى مِـــنْ بَيْـــنِهَا القَمَـــرُ[٧٧]

وَصَـدَقَ الـشَيْخُ الـمُجَرِّبُ الـذِيْ صَـلُبَ فِي الدُنـْيَا عُـوْدُهُ، وَأَعْرَقَتْ فِي الـحَيَاةِ تَجْرِبَـتُهُ، صَدَقَ حِيْنَ قَالَ فِي تَعْزِيَـتِهِ لِـيْ: (إنَّ فَقْـدَ الكَبِـيْرِ هُـوَ الفَقْـدُ الـحَقِيْقِـيُّ؛ فَبِـفَقْدِهِ يَتَفَـرَّقُ الـشَمْلُ الـمُجْتَمِعُ، وَيَـخْبُو النـُوْرُ السَاطِعُ):

فَمَـــنْ سَـــيَلُمُّ الـــشَمْلَ فِيْ كُـــلِّ رُوْحِـــهِ

وَمَـــنْ سَـــيُرَى فِيْ حُلْـــوِ بَـــسْمَتِهِ الفَجْـــرُ؟

وَمَـــنْ سَـــيُنَاغِيْ كُـــلَّ طِفْـــلٍ بِـــلَهْوِهِ

وَمَـــنْ سَـــيُوَاسِيْ مَـــنْ بِـــهِ نَـــزَلَ الـــضُرُّ؟

وَمَـــنْ سَـــيُنَادِيْ كُـــلَّ فَجْـــرٍ لِطَاعَـــةٍ

وَيَأْمُرُنَـــا بِـــالوَصْلِ يَـــا طِيْـــبَهُ الأَمْـــرُ!

وَمَـــنْ سَيُنَاجِـــيْ رَبَّـــهُ كُـــلَّ لَيْلَـــةٍ

وَيَـــدْعُوْ لَنَـــا كَـــيْ لا يَحِـــيْقَ بِـــنَا شَرُّ؟[٧٨]

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

لَقَدْ فَقَدْنَا كُلَّ هَذَا وَأَكْثَرَ مِنْهُ بِفَقْدِكِ يَا أُمَّاهُ، فَإِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُوْنَ. وَرَحِمَكِ اللهُ يَا أُمِّيْ يَا (أُمَّ عَبْدِالله)، وَجَمَعَنَا اللهُ بِكِ وَبِأَبِيْ وَوَالِدِيْكُمْ مَعَ النَبِيِّيْنَ وَالصِدِّيْقِيْنَ وَالشُهَدَاءِ وَالصَالِحِيْنَ فِي الفِرْدَوْسِ الأَعْلَى مِنَ الجَنَّةِ.

لَقَدْ فَقَدْتُ بِفَقْدِ أُمِّيْ -رَحِمَهَا اللهُ- الحُبَّ الصَادَقَ الذِيْ لا نِفَاقَ فِيْهِ وَلا رِيَاءَ، وَفَقَدْتُ النَقَاءَ الخَالِصَ الذِيْ لا يَشُوبُهُ غِشٌّ وَلا كَدَرٌ، وَهُوَ مَا يَنْدُرُ وُجُوْدُهُ غَالِباً فِي زَمَنٍ نَعِيْشُهُ الآنَ، زَمَنٍ لَبِسَ فِيْهِ أَكْثَرُ النَاسِ الثِيَابَ عَلَى قُلُوْبِ الذِئَابِ، وَشَرُّ الذِئَابِ عَلَيْهَا الثِيَابُ[٧٩]، وَمَنْ يَأْمَنِ الذِئْبَ لا تَسْلَمْ عَوَاقِبُهُ:

وَالذِئْبُ أَخْبَثُ مَا يَكُوْنُ إذا بَدَا

مُتَلَبِّساً بَيْنَ النِعَاجِ إِهَابَا[٨٠]

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

أَجَـلْ، إنَّ ظَـاهِرَ تَعَامُـلِ كَثِـيْرٍ مِـنَ النَـاسِ أَرَقُّ مِـنَ الـحَرِيْرِ وَالـدِيْبَاجِ، وَأَلْـسِنَتَهُمْ أَحْـلَى مِـنَ العَسَلِ الـمُصَفَّى، لَكِـنَّ قُلُـوْبَهُمْ أَخْشَنُ فِي اليَدِ مِنْ شَوْكِ العِضَاهِ، وَأَمَرُّ فِي الـحَلْقِ مِنَ العَلْقَمِ:

إذا أَنْـــتَ فَتَّـــشْتَ القُلُـــوْبَ وَجَـــدْتَهَا

قُلُـــوْبَ الأَعَـــادِيْ فِيْ جُـــسُوْمِ الأَصَـــادِقِ[81]

إنّهُ لَـزَمَنٌ لا يَـأْمَنُ فِـيْهِ الـحَصِيْفُ غَـدْرَ الـصَدِيْقِ، وَلا تَقَلُّبَ الرَفِـيْقِ؛ لأنَّ القُلُوْبَ اليَوْمَ تُقَلِّبُهَا الـمَصَالِـحُ وَالأَهْوَاءُ إلا مَا رَحِمَ رَبِّيْ، وَقَلِـيْلٌ مَا هُمْ؛ فَهُمْ أَنْدَرُ مِنَ الكِبْرِيْـتِ الأَحْمَرِ وَمِـنَ الزَبَرْجَدِ الأَخْـضَرِ.

وَلَكِنَّ قَلْبَ الأُمِّ وَحُـبَّهَا وَعَطْفَـهَا وَحَنَانَهَا فَقَـطْ هِـيَ التِـيْ لا تَتَغَيَّرُ أَبَـداً:

فَـــإنَّ الـــحَنَانَ الـــحَقَّ فِي الأُمِّ وَحْـــدَهَا

وَغَـــيْرُ حَنَـــانِ الأُمِّ ضَرْبٌ مِـــنَ الـــوَهْمِ

هِـــيَ الأُمُّ سِـــرٌّ لَـــسْتَ تَعْـــرِفُ كُنْهَـــهُ

وَإنْ خِلْتَهَـــا فِـــيْ صُـــوْرَةِ الـــدَمِ واللَحْـــمِ[82]

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

نَعَمْ قَدْ يَصِيْرُ الإِخْوَةُ أَعْدَاءً، وَقَدْ يَهْجُرُ الأَزْوَاجُ زَوْجَاتِهِمْ، وَالزَوْجَاتُ أَزْوَاجَهُنَّ، وَلَكِنَّ حُبَّ الأُمِّ هُوَ البَاقِيْ؛ فَهُوَ يَعِيْشُ فِيْ إِقْبَالِ الحَظِّ وَإِدْبَارِهِ، وَفِيْ تَنكُّرِ العَالَمِ وَتَجَهُّمِ وَجْهِ الدَهْرِ، وَإِنْ سَأَلْتُمُوْنِيْ عَنْ حَقِيْقَةِ ذَلِكَ فَقَدْ سَأَلْتُمْ عَنْ ذَلِكَ خَبِيْراً:

خَمْسُوْنَ عَاماً وَأَنْتِ الحُبُّ أَجْمَلُهُ
وَأَنْتِ لِيْ بَهْجَةُ الدُنْيَا وَمَا فِيْهَا
خَمْسُوْنَ عَاماً أَنَا طِفْلٌ تُدَلِّلُهُ
مَشَاعِرُ الوُدِّ فِيْ أَحْلَى مَعَانِيْهَا
خَمْسُوْنَ عَاماً أَنَا طِفْلٌ تُؤَانِسُهُ
خَمَائِلُ الحُبِّ أَلْهُوْ فِيْ مَغَانِيْهَا
خَمْسُوْنَ عَاماً أَنَا طِفْلٌ تُهَدْهِدُهُ
عُيُوْنُ طِفْلِكِ فِيْ أَبْهَى مَرَائِيْهَا
خَمْسُوْنَ عَاماً وَكُلُّ الدِفْءِ أَشْعُرُهُ
حَيْثُ الأُمُوْمَةُ لا شَيْءٌ يُوَازِيْهَا[83]

إيـْـهِ يَا أُمِّيْ لَقَدْ فَقَدْتُ بـفَقْدِكِ كَثِيْراً؛ فَالـمَالُ يُعَوَّضُ بـمَالٍ، وَلَكِنَّ الـحُـبَّ الـصَادِقَ وَالـصَفَاءَ الأَصْلِيَّ وَالنَقَاءَ الفِطْرِيَّ كُلَّهَا مَاتَتْ إلا مِنْ قُلُوْبِ الأُمَّهَاتِ، وَمِنْ أَيْنَ لِيْ أُمٌّ حَانِيَةٌ مُحِبَّةٌ مُشْفِقَةٌ، وَقَدِ اخْتَرَمَتْ يَدُ الـمَنُوْنِ رُوْحَ أُمِّيْ رَحِمَهَا اللهُ، وَغَابَ عَنِّيْ كِيَانُهَا؟:

وَأَيُّ حَيَـــــاةٍ بَعْـــــدَ أُمٍّ فَقَـــــدْتُهَا

كَـمَا يَفْقِـدُ الـمَرْءُ الـزُلالَ عَـلَى الظَـمَا[84]

لَقَدْ مَاتَتْ أُمِّيْ رَحِمَهَا اللهُ، وَاخْتَفَى مِنْ حَيَاتِيْ حُبُّهَا وَعَطْفُهَا وَحَنَانُهَا، فَأَمْحَلَتْ بَعْدَهَا أَرْضِيْ فِيْ كُلِّ بَقِيْعٍ، وَصَوَّحَتْ رِيَاضِيْ بَعْدَ رَبِيْعٍ:

أَنـــْتِ فـــَيْءٌ ظَلـــِيْلٌ قـــَدْ زَالَ عَنـَّـــا

وَاخْـتَفَـــى بَيـــْنَ سِتـــْرِهَا وَالحِجَـــابِ

أَنـــْتِ رَوْضٌ زَاهِـــي الأَرِيْـــجِ وَزَاهٍ

طَـــيِّبُ الأَصْـــلِ طَـــاهِرُ الأَنْـــسَابِ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

مَـــا بَقَائِـــيْ مِـــنْ بَعْـــدِ فَقَـــدِكِ إلا

مِثْـــلُ عَـــيْشِ الرِيَـــاضِ دُوْنَ سَـــحَابِ[85]

وَأَفَلَتِ تِلْكَ الشَمْسُ المُنِيْرَةُ فِي المَغِيْبِ وَفِيْ مَعِيَّتِهَا ذَهَبَ الأُنْسُ وَالهَنَاءُ وَحَلاوَةُ العَيْشِ وَالصَفَاءُ:

اليَـــوْمَ فَـــارَقَنِي الهَنَـــاءُ وَأَقْفَـــرَتْ

أَرْضِيْ وَصِرْتُ يَهُوْلُنِـــي القَفْـــرُ

قَـــدْ ضَـــاعَ أُنْـــسِيْ كُلُّـــهُ بِمَمَاتِـــهَا

فَـــالعَيْشُ بَعْـــدَ فِرَاقِهَـــا مُـــرُّ[86]

لَقَدْ أَمْسَتْ أُمِّيْ -رَحِمَهَا اللهُ- بَعِيْدَةَ الدَارِ، وَحَسْبُكَ بِهِ مِنْ بُعْدٍ سُكْنَى القُبُوْرِ، حَتَّى غَدَتْ جَوَانِحِيْ وَكُلُّ مَشَاعِرِيْ تُنَادِيْهَا بِاشْتِيَاقٍ وَحَنِيْنٍ، وَبُكَاءٍ وَأَنِيْنٍ، وَلَكِنْ - وآسَفَاهُ - لا تَلْقَى مُجِيْباً:

يَـا بَعِـيْدَ الـدَارِ عَـنْ عَيْنِـيْ وَمِـنْ قَلْبِـيْ قَرِيْبَـا

كَـمْ أُنَـادِيْكَ بِـأَشْوَاقِيْ وَلا أَلْقَـى مُجِـيْبَا[87]

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَلَكِنْ إذا كَانَ (**يَكْفِيْكَ مِنْ شَرٍّ سَمَاعُهُ**) فَإِنَّ فَقْدَ أُمِّيْ -رَحِمَهَا اللهُ- يَكْفِيْ أَنَّهُ أَفْقَدَنِيْ لَذَّةَ أَيِّ فَرَحٍ بَعْدَهَا، وَحَسْبُكَ بِهَذِهِ مِنْ مُصِيْبَةٍ:

آهاً لِفَقْدِكِ إنَّهُ الفَقْدُ الذِيْ

نُسِخَتْ بِيَوْمِ عَزائِهِ الأَفْرَاحُ[٨٨]

فَإِنَّا لله وَإِنّا إِلَيْهِ رَاجِعُوْنَ. وَرَحِمَكِ اللهُ يَا أُمِّيْ يَا (**أُمَّ عَبْدِالله**)، وَجَمَعَنَا اللهُ بِكِ وَبِأَبِيْ وَوَالِدِيْكُمْ مَعَ النَبِيِّيْنَ وَالصِدِّيْقِيْنَ وَالشُهَدَاءِ وَالصَالِحِيْنَ فِي الفِرْدَوْسِ الأَعْلَى مِنَ الجَنَّةِ.

أَتَدْرُوْنَ مَنْ يَمْلِكُ حَاسَّةً سَادِسَةً يَصْدُقُ حَدْسُهَا وَلا يَخِيْبُ؟

إِنَّهُ قَلْبُ أُمِّيْ رَحِمَهَا اللهُ....

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

كَمْ أَدْرَكَتْ مِنْ سَمَاعِ صَوْتِيْ عَبْرَ الهَاتِفِ فَقَطْ أَنَّنِيْ أُعَانِيْ مِنْ مُشْكِلَةٍ، أَمَّا إذا رَأَتْنِيْ، وَقَرَأَتْ قَسَمَاتِ وَجْهِيْ، فَإِنَّهُ لا يُمْكِنُ أَنْ تُخْطِئَ فِرَاسَتُهَا كَبِدَ الحَقِيْقَةِ، وَلأَنَّهَا - رَحِمَهَا اللهُ- كَانَتْ تَحْزَنُ لِحُزْنِنَا، وَتَطِيْرُ فَرَحاً بِفَرَحِنَا، كُنْتُ أُحَاوِلُ إخْفَاءَ مَا قَدْ يُكَدِّرُ عَلَيْهَا صَفْوَ حَيَاتِهَا، وَلَكِنَّهَا - رَحِمَهَا اللهُ- كَانَتْ بِفِرَاسَتِهَا وَإِحْسَاسِهَا الذِيْ لا يَخِيْبُ تَقْرَأُ مَا وَرَاءَ السُطُوْرِ، وَتَكْتَشِفُ بِحَدْسِهَا مَا خَلْفَ النَبْرَاتِ.

لَقَدْ كُنْتُ إذا أَهَمَّنِيْ أَمْرٌ أُحَاوِلُ أنْ أُنَفِّسَ عَنِّيْ مَا أَهَمَّنِيْ بِسَمَاعِ صَوْتِ أُمِّيْ -رَحِمَهَا اللهُ- مُتَحَاشِياً أنْ أُفْصِحَ لَهَا عَمَّا أَهَمَّنِيْ؛ لِيَزُوْلَ عَنِّيْ مَا أَحْزَنَنِيْ، وَلَكِنَّهَا بِحَاسَّتِهَا السَادِسَةِ - جَزَاهَا اللهُ خَيْراً- كَانَتْ تُدْرِكُ أَنَّ أَمْراً (مَا) يُقْلِقُنِيْ، وَلَوْ لَمْ أُطْلِعْهَا عَلَيْهِ، فَيُفَرِّجُ اللهُ عَنِّيْ غَمِّيْ؛ بِمُجَرَّدِ سَمَاعِ صَوْتِهَا وَحَدِيْثِهَا مَعِيْ، وَلَكِنَّ الغَمَّ يَنْتَقِلُ مِنْ قَلْبِيْ إلى قَلْبِهَا المُرْهَفِ الوَدُوْدِ؛ لأَنَّهَا أَدْرَكَتْ أَنَّنِيْ مَهْمُوْمٌ مِنْ شَيْءٍ وَإِنْ كَانَتْ لا تَعْرِفُهُ:

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

مَـــنْ لِيْ إذا مَـــا جِـــئْتُ أَبْغِـــيْ رَاحَـــةً
وَلَطَافَـــــةً إِنْ ضُـــــيِّقَ الـــــصَدْرُ؟
مَـــنْ ذا يُوَاسِـــيْنِيْ إذا مَـــا نَوَّخَـــتْ
فِي سَـــــاحَتِي الآلامُ وَالعُـــــسْرُ؟
قَـــدْ كُنْـــتِ يَـــا أُمَّـــاهُ عَـــوْنِيْ دَائِـــماً
وَبِـــكِ العَـــزَاءُ إذا اعْتَـــدَى الـــشَرُّ
قَـــدْ كُنْـــتِ يَـــا أُمَّـــاهُ مَـــصْدَرَ فَرْحَتِـــيْ
أَبَـــداً يُرَفْـــرِفُ حَوْلَـــكِ البِـــشْرُ
قَـــدْ كُنْـــتِ يَـــا أُمَّـــاهُ نَجْـــماً هَادِيـــاً
وَلأَنْـــتِ فِي ظَلْمَائِـــيَ البَـــدْرُ
قَـــدْ كُنْـــتِ يَـــا أُمَّـــاهُ ظِـــلاً وَارِفـــاً
آوِيْ إِلَيْـــهِ إذا قَـــسَا الـــحَرُّ
قَـــدْ كُنْـــتِ يَـــا أُمَّـــاهُ كِـــنّاً دَافِـــئاً
فِـــيْكِ الأَمَـــانُ إذا بَـــدَا القُـــرُّ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

قَـــدْ كُنْـــتِ يَـــا أُمَّـــاهُ نَبْعـــاً صَافِـــياً

يَـــشْفِي الغَلِـــيْلَ وَإِنَّـــكِ النَهْـــرُ

آوِيْ إلى بُـــسْتَانِ عَطْفِـــكِ رَائِقـــاً

مِـــنْ حَوْلِـــيَ الأَطْيَـــارُ وَالزَهْـــرُ[٨٩]

وَلَكِنْ بَعْدَ رَحِيْلِكِ يَا أُمَّاهُ كَيْفَ صَارَتْ حَالِيْ؟

اليَـــوْمَ أَصْـــبَحَ شَـــأْنِيْ كُلُّـــهُ حَزَنـــاً

إذ تَـــسْتَوِيْ الآنَ أَفْرَاحِـــيْ وَأَحْـــزَانِيْ[٩٠]

فَإذا فَرِحْتُ حَزِنْتُ؛ لأَنَّهُ قَدْ مَاتَ مَنْ يَفْرَحُ لِفَرَحِيْ أَكْثَرَ مِنِّيْ.

وَإذا حَزِنْتُ ازْدَدْتُ أَسًى وَحُزْناً؛ لأَنَّهُ قَدْ مَـاتَ مَنْ يُسَلِّيْنِيْ.

وَمِنْ عَجَائِبِ مَا حَصَلَ لِيْ فِيْ أَثْنَاءِ المُكْثِ الأَخِيْرِ لأُمِّيْ - رَحِمَهَا اللهُ- في المُسْتَشْفَى أَنَّنِيْ بَعْدَ الخُرُوْجِ مِنْ زِيَارَتِهَا مَغْمُوْماً حَزِيْناً؛ لِمَا حَلَّ بِهَا، كَانَ يَحْدُثُ لِيْ كَثِيْراً أَنْ أَهُمَّ بِإِخْرَاجِ

الهَاتِفِ؛ لأَتَّصِلَ بِوَالِدَتِيْ فِي بَيْتِهَا بِـ(الرَسِّ)؛ عَلَّهُ يَزُوْلُ هَمِّيْ وَغَمِّيْ، كَمَا كُنْتُ أَفْعَلُ مِنْ قَبْلُ حِيْنَمَا كَانَ يَحْزُنُنِيْ أَمْرٌ، فَأُفِيْقُ عَلَى الحَقِيْقَةِ المُرَّةِ، أَلا وَهِيَ أَنَّنِيْ بِهَذَا أَكُوْنُ كَمَنْ يَسْعَى إلى أَنْ يُدَاوِيَ نَفْسَهُ بِالتِيْ كَانَتْ هِيَ الدَاءَ؛ لأَنَّ أُمِّيْ لا يُمْكِنُ أَنْ أَسْمَعَ صَوْتَهَا؛ فَهِيَ التِيْ تَرَكْتُهَا قَبْلَ لَحَظَاتٍ مُسَجَّاةً عَلَى السَرِيْرِ بِلا حِرَاكٍ وَلا كَلامٍ، وَهِيَ التِيْ مَا كَانَ لَهَا أَنْ تَتَصَامَّ عَنْ نِدَائِيْ، وَقَدْ كُنْتُ أُنَادِيْهَا، وَأَقُوْلُ لَهَا: (أَنَا صَالِحٌ)، بَلْ أَذْكُرُ الكُنْيَةَ التِيْ كَانَتْ تُحِبُّهَا، وَلا تُنَادِيْنِيْ إلا بِهَا، فَأَقُوْلُ لَهَا: (**أَنَا أَبُوْ أُسَامَةَ**)، فَيَبْكِيْ إشْفَاقاً عَلَيَّ، وَرَحْمَةً بِيْ، وَرَأْفَةً بِحَالِيْ، يَبْكِيْ كُلُّ مَنْ حَوْلَهَا مِنَ المَرْضَى وَزُوَّارِهِمْ، وَلا سِيَّمَا الأُمَّهَاتُ، أَمَّا أُمِّيْ فَهِيَ وَحْدَهَا التِيْ لا تُجِيْبُ، وَلا أَدْرِيْ أَهِيَ تَسْمَعُنِيْ أَمْ لا؟؟؟، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلا بالله العَلِيِّ العَظِيْمِ :

وَكُنْتُ إذَا مَا ضَاقَ صَدْرِيْ بِحَادِثٍ

فَزِعْتُ بِنَجْوَاهُ إلَى صَدْرِهَا الرَحْبِ

فَيَذْهَبُ عَنِّيْ هَمُّ نَفْسِيْ كَأَنَّهَا
شَفَتْ غُلَّةَ الظَمْآنِ بِالبَارِدِ العَذْبِ[٩١]

لَقَدْ فَقَدْتُ بِفَقْدِكِ يَا أُمِّيْ مَا لا يُعَوِّضُهُ أَحَدٌ فِي الدُنْيَا سِوَاكِ، فَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُوْنَ. وَرَحِمَكِ اللهُ يَا أُمِّيْ يَا (أُمَّ عَبْدِالله)، وَجَمَعَنَا اللهُ بِكِ وَبِأَبِيْ وَوَالِدِيْكُمْ مَعَ النَبِيِّيْنَ وَالصِدِّيْقِيْنَ وَالشُهَدَاءِ وَالصَالِحِيْنَ فِي الفِرْدَوْسِ الأَعْلَى مِنَ الجَنَّةِ.

ﷺ أَقْصَرُ الطُرُقِ إِلى تَحْقِيْقِ المَنْشُوْدِ هُوَ دُعَاءُ الوَالِدَيْنِ؛ يَقُوْلُ رَسُوْلُ الله : (**ثَلاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لا شَكَّ فِيْهِنَّ: دَعْوَةُ الوَالِدِ لِوَلَدِهِ، وَدَعْوَةُ المَظْلُوْمِ، وَدَعْوَةُ المَرْءِ لأَخِيْهِ**)، وَإِنَّ دَعْوَةَ الأُمِّ لا يُمْكِنُ أَنْ تَضِلَّ الطَرِيْقَ.

وَأُمِّيْ -رَحِمَهَا اللهُ رَحْمَةً وَاسِعَةً- كَانَتْ دَائِمَةَ الرِضَا عَنْ أَوْلادِهَا، شَدِيْدَةَ الحُبِّ لَهُمْ، وَلِذَلِكَ لَمْ تَكُنْ تَفْتُرُ عَنِ الدَعَوَاتِ

الصَالـحَاتِ لَـهُمْ فِي قِيَامِهَا وَقُعُوْدِهَا، وَبـقَلْبـهَا السَلِيْمِ الـذِيْ لا يَعْرِفُ غِلاً وَلا أَحْقَاداً، وَقَدْ كُنْتُ أَرَى فِيْ شُؤُوْنِيْ كُلِّهَا أَثَرَ دُعَائِهَا عِيَاناً لا مِرْيَةَ فِيْهِ وَلا ارْتِيَابَ فِيْ حِلِّيْ وفِيْ تَرْحَالِيْ:

مَـــا زَالَ صَـــوْتُكِ يَـــا أُمَّـــاهُ يَتْبَعُنِـــيْ

يَـــا رَبِّ رُدَّ حَبِـــيْباً أَدْمَـــنَ الـــسَفَرا

يَـــا رَبِّ صُـــنْهُ مِـــنَ الأَشْرَارِ كُلِّهِـــمُ

وَرُدَّ عَنْـــهُ الأَذَى وَالكَيْـــدَ وَالـــخَطَرا

وَاجْـــبُرْ إِلَهِـــيَ كَـــسْراً حَـــلَّ فِيْ خَلَـــدِيْ

فَأَنْـــتَ تَجْـــبُرُ يَـــا مَـــوْلايَ مَـــا انْكَـــسَرا[٩٢]

وَلِذَلِكَ كَمْ مِنْ أَبْوَابِ الـخَيْرِ تَفَتَّحَتْ لِيْ مِنْ دُوْنِ احْتِسَابٍ، وَكَمْ مَكِيْدَةٍ مِنْ مَكَايْدِ الـحَاسِدِيْنَ دُحِرَتْ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ بِـفَضْلِ اللهِ تَعَالَى ثُـمَّ بِـقَبُوْلِهِ دُعَاءَ أُمِّيْ رَحِمَهَا اللهُ.

وَإِنَّيْ لأَعْتَرِفُ اليَوْمَ وَكُلَّ يَوْمٍ بِـأَنَّنِـيْ مَـدِيْنٌ بِـكُلِّ مَـا وَصَـلْتُ إِلَيْـهِ، وَمَا قَدْ أَصِلُ إِلَيْهِ فِي الـمُسْتَقْبَلِ بِـإِذنِ اللهِ، مَـدِيْنٌ للهِ تَعَـالَى ثُـمَّ لأُمِّيْ رَحِمَهَا اللهُ.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَلَكِنْ هَا هُوَ ذا البَابُ الرَحْبُ الـمُشْرَعُ لِكُلِّ خَيْرٍ قَدْ أُوْصِدَ؛ بِوَفَاةِ أُمِّيْ رَحِمَهَا اللهُ....

فَمَا أَفْدَحَ الـمُصَابَ ! وَمَا أَعْظَمَ الـخَسَارَةَ !!!:

إلى مَنْ أَشْتَكِيْ ولِمَنْ أُنَاجِيْ
إذا ضَاقتْ بِمَا فِيْهَا الصُدُوْرُ؟
بِأيِّ دُعَاءِ دَاعِيَةٍ أُوَقَّى؟
بِأيِّ ضِيَاءِ وَجْهٍ أَسْتَنِيْرُ؟
بِمَنْ يُسْتَدْفَعُ القَدَرُ المُوَقَّى؟
بِمَنْ يُسْتَفْتَحُ الأَمْرُ العَسِيْرُ؟
نُسَلَّى عَنْكِ أنَّا عَنْ قَلِيْلٍ
إلى مَا صِرْتِ في الأُخْرَى نَصِيْرُ[٩٢]

فَإِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُوْنَ. وَرَحِمَكِ اللهُ يَا أُمِّيْ يَا (أُمَّ عَبْدِالله)، وَجَمَعَنَا اللهُ بِكِ وَبِأَبِيْ وَوَالِدِيْكُمْ مَعَ النَبِيِّيْنَ وَالصِدِّيْقِيْنَ وَالشُهَدَاءِ وَالصَالِحِيْنَ فِي الفِرْدَوْسِ الأَعْلَى مِنَ الجَنَّةِ.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

في الدُنـيَا مَلَـذَّاتٌ أَعْظَـمُ مِـنَ الطَعَـامِ والـشَرَابِ وَسَـائِرِ الـمَلَذَّاتِ الـمَعْهُوْدَةِ، وَمِـنْ أَلَذِّ الـمَلَذَّاتِ التِـيْ يَغْفُـلُ عَنْهَـا كَثِـيْرٌ مِنَ النَاسِ إِدْخَـالُ الـسُرُوْرِ عَـلَى قُلُـوْبِ الآخَـرِيْنَ، يَقُـوْلُ الرَسُـوْلُ : (**أَحَبُّ النَاسِ إلى الله أَنْفَعُهُمْ لِلنَاسِ، وَأَحَبُّ الأَعْمَالِ إلى الله سُرُوْرٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِيْ عَنْهُ دَيْناً، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوْعاً**)، فَكَيْفَ إذا كَانَ القَلْبُ الذِيْ تَغْمُرُهُ بالـسُرُوْرِ هُوَ قَلْبَ أُمِّكَ، سَوَاءٌ أَكَانَ ذَلِكَ بِـبِـرِّهَا الوَاجِبِ الذِيْ لا مَـزِيْدَ فَضْلٍ فِي القِيَامِ بِـهِ، أَمْ بِـمَا زَادَ عَلَيْهِ، إِنَّ لِذَلِكَ لَذَّةً لَـوْ وُزِنَـتْ بِـهَا مَلَذَّاتُ الـحَيَاةِ الدُنْيَا كُلُّهَا لَرَجَحَتْ بِـهِنَّ.

وَلَقَدْ أَدْرَكْتُ أَنَّ أُمِّيْ -رَحِمَهَا اللهُ- تُحِبُّ بَذْلَ الـخَيْرِ وَمُسَاعَدَةَ الـمُحْتَاجِـيْنَ وَالـمُحْتَاجَاتِ، وَلِكَثْرَةِ مَنْ تَعْرِفُ مِنْهُمْ كَانَ مِنَ البِـرِّ بِـهَا جَعْلُهَا طَرِيْقاً لِإِيْتَاءِ بَعْضِ الزَكَاةِ وَبَذْلِ شَيْءٍ مِنَ الـصَدَقَاتِ، فَلا تَسْأَلُوْا عَنْ مِقْدَارِ سُرُوْرِهَا كَيْفَ كَانَ يَبْلُغُ حِـيْنَذَاكَ؟

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَمَهْمَا حَلَّقَ بِكِمُ شِرَاعُ الخَيَالِ، أوْ أَبْحَرَ بِكُمْ سَفِيْنُهُ، فَلا يُمْكِنُ أنْ تُحِيْطُوا بِمَا يَكُوْنُ لِذَلِكَ فِيْ نَفْسِهَا -رَحِمَهَا اللهُ- مِنْ سَعَادَةٍ وَفَرَحٍ وَحُبُوْرٍ.

وَأَحْسَبُ أنَّ غَيْرَ قَلِيْلٍ مِنَ الأَوْلادِ لا يُدْرِكُ أنَّ الآبَاءَ وَالأُمَّهَاتِ يَوَدُّوْنَ أنْ يَصِيْرُوا أَيَادِيَ عُلْيَا تُعْطِيْ، مِثْلَمَا جُبِلَتِ النُفُوْسُ عَلَى سَجِيَّةِ قَبُوْلِ الهِبَاتِ وَالعَطَايَا، وإِنِّيْ لأَرَى أنَّ مِنَ البِرِّ بِالوَالِدَيْنِ إشْبَاعَ هَذِهِ الغَرِيْزَةِ لَدَيْهِمَا بِمُسَاعَدَتِهِمَا عَلَى إِعَانَةِ الفُقَرَاءِ وَالمُعْوِزِيْنَ.

وَأَعُوْدُ لأَقُوْلَ: لا شَكَّ فِيْ أنَّهُ بَعْدَ وَفَاةِ أُمِّيْ -رَحِمَهَا اللهُ- لا يَخْفَى عَلَى مِثْلِيَ أنَّ بِرَّ الوَالِدَيْنِ لا يَنْقَطِعُ بِوَفَاتِهِمَا؛ لأنَّ رَسُوْلَ الله حَيْنَ سَأَلَهُ أَحَدُ الصَحَابَةِ -رِضْوَانُ الله تَعَالَى عَلَيْهِمْ أَجْمَعِيْنَ- فَقَالَ: يَا رَسُوْلَ الله:

هَلْ بَقِيَ مِنْ بِرٍّ أَبَوَيَّ شَيْءٌ أَبَرُّهُمَا بِهِ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِمَا؟

قَالَ: **(نَعَمْ، الصَلاةُ عَلَيْهِمَا -أَيْ الدُعَاءُ لَهُمَا- وَالإِسْتِغْفَارُ لَهُمَا، وَإِنْفَاذُ عُهُوْدِهِمَا، وَإِكْرَامُ صَدِيْقِهِمَا، وَصِلَةُ الرَحِمِ الذِيْ لا رَحِمَ لَكَ إلا مِنْ قِبَلِهِمَا)**.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

إذا سَـــجَدْتُ رَفَعْـــتُ القَلْـــبَ مُبْـــتَهِلاً
إنِّيْ عَـــلَى ثِقَـــةٍ بـــالوَاحِدِ الأَحَـــدِ
أَدْعُـــوْ لِـــمَنْ عَلَّمَتْنِـــي الـــصِدْقَ مُبْحِـــرَةً
بِـمُهْجَتِـــيْ فِيْ عُبَـــابِ الـــحَقِّ وَالرَشَـــدِ
أَدْعُـــوْ لِـــمَنْ عَلَّمَتْنِـــي الـــحُبَّ مَـــا وَهَنَـــتْ
حَتَّـــى سَرَى نَبْـــضُهُ فِيْ قَلْـــبِ مُعْتَقَـــدِيْ
أَدْعُـــوْ لِـــمَنْ عَطَّـــرَتْ شِـــعْرِيْ بِبَـــسْمَتِهَا
وَمِـــنْ سَـــنَا رُوْحِهَـــا يَعْتَادُنِـــيْ مَـــدَدِيْ
أَدْعُـــوْ لِـــمَنْ كُلَّـــمَا دَوَّنْـــتُ قَافِـــيَةً
وَجَـــدْتُ قُبْلَـــتَهَا البَيْـــضَاءَ فَـــوْقَ يَـــدِيْ
وَكَـــانَ آخِـــرُ مَـــا قَالَتْـــهُ نَظْرَتُهَـــا
كُـــنْ رَاضِـــياً بِـقَـــضَاءِ اللهِ يَـــا وَلَـــدِيْ[٩٩]

لَكِنِ الآنَ بَعْدَ رَحِيْلِ أُمِّـيْ: كَيْفَ السَبِـيْلُ إلى التَلَذُّذِ بِإِدْخَالِ السُرُوْرِ إلى قَلْبِـهَا، وَمَا يَتْبَعُهُ مِنْ دُعَائِهَا الـمُسْتَجَابِ؟

لَقَدْ فَقَدْتُ كُلَّ هَذَا؛ بِـرَحِـيلِكِ يَا أُمِّيَ الغَالِـيَةَ الأَثِـيْرَةَ:

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

يَـــا رُوْحَ أَحْلامِـــيْ وَنَبْـــعَ خَـــوَاطِرِيْ
وَمُنَـــــايَ فِيْ فَرَحِـــــيْ وَفِيْ أَشْجَانِـــــيْ
لَـــــهَفِيْ عَلَيْـــكِ قَرِيْبَـــةً وَبَعِيْـــدَةً
لَهَفِـــيْ عَلَيْـــكِ وَأَنْـــتِ فِي الأَكْفَـــانِ(٥٩)

فَإِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيهِ رَاجِعُوْنَ. وَرَحِمَكِ اللهُ يَا أُمِّيْ يَا (أُمَّ عَبْدِالله)، وَجَمَعَنَا اللهُ بِكِ وَبِأَبِيْ وَوَالِدِيْكُمْ مَعَ النَبِيِّيْنَ وَالصِدِّيْقِيْنَ وَالشُهَدَاءِ وَالصَالِحِيْنَ فِي الفِرْدَوْسِ الأَعْلَى مِنَ الجَنَّةِ.

مِمَّا لا رَيْبَ فِيْهِ أَنّ الإِنْفَاقَ بِلا إِسْرَافٍ وَلا تَبْذِيْرٍ لا يَنْقُصُ مِنَ المَالِ شَيْئاً؛ لِقَوْلِ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[سبأ: 39]. وَلا شَكَّ فِيْ أَنَّ التَصَدُّقَ مِنَ المَالِ قَدْ أَقْسَمَ رَسُوْلُنَا أَنَّهُ لا يَنْقُصُهُ، بَلْ يَزِيْدُهُ، وَأَمَّا الإِنْفَاقُ عَلَى الوَالِدَيْنِ -إذا قُصِدَ بِهِ وَجْهُ الله وَالدَارُ الآخِرَةُ- فَهُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، بَلْ هُوَ أَوْسَعُ أَبْوَابِ الرِزْقِ، وَأَرْغَدُهُ، وَأَسْرَعُهُ، وَأَطْيَبُهُ.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

◉ أَلا مَنْ أَرَادَ بَرَكَةَ الرِزْقِ فَلْيُسْرِعْ، لَيْسَ إلى الإِنْفَاقِ عَلَى أَبَوَيْهِ فَحَسْبُ، بَلْ إلى الإِغْدَاقِ عَلَيْهِمَا بِنَفْسٍ رَضِيَّةٍ.

◉ أَلا مَنْ أَرَادَ رَغَدَ العَيْشِ فَلا يَبْخَلْ عَلَى وَالِدَيْهِ.

◉ أَلا مَنْ أرادَ سُرْعَةَ الإِيْسَارِ فَلْيُوْسِرْ عَلَى أُمِّهِ وَأَبِيْهِ.

وَلَقَدْ رَأَيْتُ ثَمَرَةَ هَذَا بِأُمِّ عَيْنِيْ، فَوَجَدْتُ أَنَّ مَا يُنْفِقُهُ الوَلَدُ عَلَى أُمِّهِ أَوْ أَبِيْهِ يُخْلِفُهُ اللهُ عَلَيْهِ مُضَاعَفاً أَضْعَافاً كَثِيْرَةً، وَعَاجِلاً غَيْرَ آجِلٍ، مَعَ مَا يَدَّخِرُهُ لَهُ مَوْلاهُ -جَلَّ جَلالُهُ- مِنْ ثَوَابِ الآخِرَةِ، وَوَاللهِ، ثُمَّ وَاللهِ، وَتَاللهِ مَا قَلَّ مَا أَخْلَفَهُ اللهُ عَلَيَّ مِمَّا أَنْفَقْتُهُ عَلَى أُمِّيْ -رَحِمَهَا اللهُ- فِيْ أَيِّ مَرَّةٍ مِنَ المَرَّاتِ، مَا قَلَّ عَنْ عَشَرَةِ أَضْعَافِهِ، حَتَّى أَيْقَنْتُ أَنَّ أُمِّيْ -رَحِمَهَا اللهُ- قَدْ جَعَلَهَا رَبِّيْ أَوْسَعَ أَبْوَابِ رِزْقِهِ لِيْ.

◉ فَهَنِيْئاً لِمَنْ تَكْتَحِلُ عَيْنَاهُ بِرُؤْيَةِ وَالِدَيْهِ صَبَاحَ مَسَاءَ.

◉ وَهَنِيْئاً لِمَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا.

◉ وَهَنِيْئاً لِمَنِ احْتَاجَ لَهُ أَبَوَاهُ أَوْ أَحَدُهُمَا.

◉ وَهَنِيْئاً لِمَنْ وَفَّقَهُ اللهُ لِبِرِّهِمَا.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَإِنَّ اللهَ وَحْدَهُ لَيَعْلَمُ كَمْ تَمَنَّيْتُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى مَدَّ فِيْ عُمُرِ أَبِيْ رَحِمَهُ اللهُ؛ لأَتَمَكَّنَ مِنْ بِرِّهِ حَيّاً، وَلَكِنَّ اللهَ شَاءَ أَنْ أَفْقِدَهُ - يَرْحَمُهُ اللهُ- وَأَنَا ابْنُ الثَانِيَةَ عَشْرَةَ[٩٥].

وَهَا هِيَ ذِيْ أُمِّيْ -رَحِمَهَا اللهُ- تَلْحَقُ بِهِ بَعْدَ حِيْنٍ؛ لأَبْقَى بَعْدَهُمَا فِي هَذِهِ الدُنْيَا أَجْنَبِيّاً غَرِيْباً:

أُسْرَةُ الـــمَرْءِ وَالِـــدَاهُ وَفِيْمَـــا

بَـــيْنَ حِـــضْنَيْهِمَا الـــحَيَاةُ تَطِـــيْبُ

فَـــإِذَا وَلَّيَـــا عَـــنِ الـــمَرْءِ يَوْمـــاً

فَهْـــوَ فِي النَـــاسِ أَجْنَبِـــيٌّ غَرِيْـــبُ[٩٦]

لَكِنَّ مِنَ العَجَبِ العُجَابِ أَنَنِيْ قَدْ وَجَدْتُ بَيْنَ فَقْدِيْ لأَبِيْ - رَحِمَهُ اللهُ- وَفَقْدِيْ لأُمِّيْ رَحِمَهَا اللهُ، وَجَدْتُ بَيْنَهُمَا فَرْقاً بَيِّناً فِيْ آثَارِهِمَا عَلَى نَفْسِيْ، وَهُوَ مَا يَصْدُقُ عَلَيْهِ قَوْلُ القَائِلِ:

فَقَـــدْتُ أَبِـــيْ طِفْـــلاً فَلَـــمْ أَدْرِ مَـــا الأَسَـــى

وَأُفْقِـــدْتُهَا كَهْـــلاً فَـــأَوْهَى الأَسَـــى عَظْمِـــيْ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

سَلُوْنِـــيْ أُحَدِثـــكُمْ عَـــنِ الـــيُتْمِ بَعْـــدَهَا
فَـــإِنَّ اليَتِـــيْمَ الكَهْـــلَ أَعْـــرَفُ بِـــاليُـــتْمِ[98]

فَمَا أَعْظَمَ مُصَابِيْ بِفَقْدِكِ يَا أُمِّيْ!!!

سَـــلُوْنِيْ عَـــنِ الأَحْـــزَانِ بَعْـــدَ رَحِـــيْلِهَا
فَـــلا حُـــزْنَ فِي الـــدُنْيَا كَحُـــزْنِيْ عَـــلَى أُمِّـــيْ
مَـــضَتْ حَيْـــثُ لا رَجْـــوَى بِـــيَوْمِ رُجُوْعِهَـــا
وَحَـــسْبُكَ أَنْ تَحْيَـــا مَـــعَ اليَـــأْسِ وَالغَـــمِّ[99]

فَإِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُوْنَ. وَرَحِمَكِ اللهُ يَا أُمِّيْ يَا (أُمَّ عَبْدِالله)، وَجَمَعَنَا اللهُ بِكِ وَبِأَبِيْ وَوَالِدِيْكُمْ مَعَ النَبِيِّيْنَ وَالصِدِّيْقِيْنَ وَالشُهَدَاءِ وَالصَالِحِيْنَ فِي الفِرْدَوْسِ الأَعْلَى مِنَ الجَنَّةِ.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

دَمْعَةٌ عَلَى قَبْرِ أُمِّي

بَعْدَ صَلاةِ الظُّهْرِ مِنْ يَوْمِ الخَمِيْسِ 24/ 5/ 1424هـ أَسْرَعَ المُشَيِّعُونَ بِجِنَازَةِ أُمِّيْ -رَحِمَهَا اللهُ- إلى حَيْثُ اللَحْدُ الضَيِّقُ، وَمَا هِيَ إلا دَقَائِقُ مَعْدُوْدَةٌ اِجْتَهَدَ فِيْهَا البَاحِثُوْنَ عَنِ الثَوَابِ تَحْتَ شَمْسِ الظَهِيْرَةِ الحَارِقَةِ، وَلَهِيْبُهَا يَحْدُوْهُمْ إلى الاِسْتِعَاذَةِ بِالرَحْمَنِ مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ، مَا هِيَ إلا دَقَائِقُ مَعْدُوْدَةٌ حَتَّى صَدَرَ الأَمْرُ الصَارِمُ: (أَهِيْلُوْا عَلَيْهَا التُرَابَ بِاسْمِ اللهِ، وَعَلَى مِلَّةِ رَسُوْلِ اللهِ).

فَانْهَالَ التُرَابُ عَلَى أَحَبِّ الأَحْبَابِ، وَأَنَا وَاقِفٌ عَلَى قَبْرِهَا وَاجِماً، لا أَكَادُ أُصَدِّقُ مَا تَرَى عَيْنَايَ؛ فَفِي الأَمْسِ كُنَّا نَمْسَحُ عَنْ جَبِيْنِكِ يَا أُمِّيْ ذَرَّاتِ الغُبَارِ، وَهَا نَحْنُ أُوْلاءِ الآنَ نَجْتَهِدُ فِيْ رَمْسِكِ بِالتُرَابِ!.

وَحَثَوْتُ ثَلاثَ حَثَيَاتٍ اقْتِدَاءً بِسُنَّةِ المُصْطَفَى ، ثُمَّ وَقَفْتُ عَلَى رَأْسِ أُمِّيَ الذِيْ طَالَمَا طَبَعْتُ عَلَيْهِ سَيْلَ القُبُلاتِ، وَقَفْتُ غَيْرَ آبِهٍ بِحَرَارَةِ الشَمْسِ التِيْ تَحْرِقُ الجُلُوْدَ؛ لأَنَّ حَرَارَةَ جَوَانِحِيْ تُنْسِيْ مَا سِوَاهَا، وَ(عِلَّةُ الحَالِ تُنْسِيْ عِلَّةَ الجَسَدِ)[100].

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَانْثالَتْ أَشْجَانِيْ شَلالاتٍ مُتَدَفِّقَةً نَابِعَةً مِنْ أَعْمَاقٍ دَفِيْنَةٍ:

◉ إيْهِ يَا أُمِّيْ يَا حُشَاشَةَ نَفْسِيْ؛ إنَّ هَذِهِ -واللهِ- هِيَ السَاعَةُ التِيْ مَا تَمَنَّيْتُ أنْ أُدْرِكَهَا....

◉ إيْهِ يَا أُمِّيْ يَا حَبِيْبَةَ فُؤَادِيْ؛ إنَّ هَذَا -واللهِ- هُوَ المَوْقِفُ الذِيْ لَمْ أَحْسِبْ لَهُ حِساباً....

◉ إيْهِ يَا أُمِّيْ يَا غِذَاءَ رُوْحِيْ؛ إنَّهُمْ لا يَدْفِنُوْنَ جَسَدَكِ، بَلْ يَدْفِنُوْنَ سَعَادَتِيْ وَهَنَائِيْ....

◉ إيْهِ يَا أُمِّيْ يَا ضِيَاءَ عَيْنِيْ؛ أَحَقّاً أنَّ هَذَا هُوَ آخِرُ عَهْدِيْ بِكِ فِيْ هَذِهِ الدُنْيَا....

وَسَقَطَتْ مِنِّيْ دَمْعَةُ أَسًى وَحَزَنٍ، دَمْعَةٌ تَدَحْرَجَتْ كَاللُؤْلُؤِ الرَطْبِ عَلَى الخَدِّ الأَسِيْلِ، (وَإِنَّ الرَّجُلَ لاَ يَبْكِيْ إلاَّ مَرَّةً، وَلَكِنَّ دُمُوْعَهُ عِنْدَئِذٍ تَكُوْنُ مِنْ دَمٍ)، لَقَدْ كَانَتْ عَبْرَةً مِنْ عَيْنِيْ، وَالعَبْرَةُ لا يَمْلِكُهَا أَحَدٌ، وَمَعَ ذَلِكَ اجْتَهَدْتُ فِيْ أنْ أُخْفِيَهَا عَنِ الشَامِتِيْنَ وَالحَاسِدِيْنَ، وَهَلْ فِي المَوْتِ يَا عِبَادَ اللهِ شَمَاتَةٌ أَوْ حَسَدٌ؟ وَ:(حَتَّى

عَلَى الـمَوْتِ لا أَحْلُوْ مِـنَ الحَـسَدِ)[101]، وَإِنَّـهَا لَـدَمْعَـةٌ وَاحِـدَةٌ فَقَطْ، وَعَلَى مِثْلِ أُمِّيْ - رَحِمَهَا اللهُ- تَسِيْلُ الدُمُوْعُ غِزَاراً.

لَـــوْلا الـــحَيَاءُ لَهَاجَنِـــي اِسْـــتَعْبَارُ

وَطَفَـــا بِـعَيْنِـــيْ دَمْعُهَـــا الـــمِدْرَارُ[102]

وَانْتَبَهْتُ بَعْدَ بُرْهَةٍ مِنَ الوَقْتِ فَإِذا القَوْمُ قَدْ أَنْهَوْا مَرَاسِمَ الدَفْنِ وَالتَعْزِيَةِ، وَأَنَا مَا زِلْتُ أَسْبَحُ فِيْ بَحْرِ شُجُوْنِيْ، فَاسْتَعَذتُ بِاللهِ مِنَ الشَيْطَانِ الرَجِيْمِ، وَأَفَقْتُ عَلَى الحَقِيْقَةِ التِيْ مَا مِنْهَا مَفَرٌّ، وَلا عَنْهَا مَنَاصٌ، وَهِيَ أَنَّ هَذَا القَبْرَ -وَاللهِ- هُوَ الـمَنْزِلُ الـحَقُّ، وَالوَعْدُ الصِدْقُ، وَالوَعِيْدُ الشَدِيْدُ، وَالـمَسْكَنُ الذِيْ لَيْسَ لأَهْلِ الدُنْيَا عَنْهُ مَحِيْدٌ، وَإِنَّـهُ لَنِعْمَ الـمَسْكَنُ لِمَنْ أَحْسَنَ، وَلَكِنْ مَنْ يَتَذَكَّرُ فِيْ زَمَنِ التَذَكُّرِ؟.

وَأَمَّا أَنَـا فَقَدْ تَـذَكَّرْتُ سَـاعَتَهَا أَنَّ هَـذَا -وَاللهِ- هُـوَ الـمَوْتُ الـمُفَرِّقُ بَيْنَ الأَحْبَابِ، وَهُوَ الـمُقَرِّبُ مِنَ الـحِسَابِ، وَالـذِيْ بِـهِ يَعْرِفُ الفَرِيْقَانِ مَنَازِلَـهُـمْ:

أَهْلُ السَعَادَةِ فِيْ نَعِيْمٍ دَائِمٍ، وَأَهْلُ الشَقَاءِ فِيْ عَذَابٍ أَلِيْمٍ.

وَأَدْرَكْتُ أنَّ هَذَا الـمَصِيْرَ إنّما هُـوَ أَمْرُ الله الـذِيْ لا مَـدْفَعَ لَـهُ، وَحُكْمُهُ الذِيْ لا حَيْفَ فِيْهِ، وَقَدَرُهُ الذِيْ سَـوَّى فِـيْهِ بَـيْنَ عِـبَادِهِ، فَلَيْسَ للسَاخِطِ فِيْهِ عُتْبَى، وَلا لِلرَاضِيْ مِنْهُ مَنْجَى، وَلَيْسَ لَنَا أَمَامَهُ إلا الإنْقِيَادُ فِيْهِ لِنَازِلِ القَضَاءِ.

ثُـمَّ حَمِدْتُ رَبِّيَ الذِيْ لا يُحْمَدُ عَلَى مَكْـرُوْهٍ سِـوَاهُ، حَمِدْتُـهُ مِـرَاراً عَلَى قَضَائِهِ وَقَـدَرِهِ؛ فَـنَحْنُ أَهْـلُ بَيْـتٍ -بِـحَمْدِ الله- نُطِـيْعُهُ فِـيْـمَا يُحِبُّ، وَنَحْمَدُهُ فِـيْمَا نَكْرَهُ. وَهَمْهَمْتُ فِيْ صَـدْرِيْ مُتَمْتِـماً: هَـا أَنْـتِ ذِيْ يَا أُمَّاهُ أَمْسَيْتِ بَعْدَ النَضَارَةِ وَالغَضَارَةِ وَرَوْنَقِ الـحَيَاةِ أَمْـسَيْتِ تَحْتَ أَطْبَـاقِ الثَرَى جَسَداً هَامِداً:

نَفْـــسِيْ وَنَفْـــسُكِ وَالنُفُـــوْسُ مُعَـــارَةٌ
يَدْعُـــوْ بِـهَـــا إِمَّـــا يَـــشَاءُ مُعِـــيْرُهَا
فَلَـــئِنْ ذَهَبْـــتِ لَقَـــدْ ذَهَبْـــتِ وَمُقْلَتِـــيْ
صَبَّابَـــةٌ يَـــجْرِيْ عَلَيْـــكِ غَزِيْرُهَـــا
فَعَلَيْـــكِ مِـــنْ مِـــنَحِ الإِلَـــهِ صَـــلاتُهُ
وَسَـــقَى عِظَامَـــكِ فِي الـــضَرِيْحِ عَبُوْرُهَـــا[103]

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

أُمَّـاهُ لَنِعْمَ الرُوْحُ رُوْحٌ ضَمَّهَا بَدَنُكِ.

وَلَنِعْمَ البَدَنُ بَـدَنٌ يَـضُـمُّـهُ كَـفَـنُكِ.

وَلَنِعْمَ الكَفَنُ كَفَنٌ يَضُـمُّـهُ لَـحْـدُكِ.

وَمَـا أَعْـظَـمَ مُـصَـابِـيْ بِكِ يَـا أُمِّـيْ!!!

لَكِنْ يَا أُمَّاهُ إنَّ رَبِّيْ أَمَرَنِيْ بِـالصَبْرِ، وَوَعَدَنِيْ عَلَيْهِ عَظِيْمَ الأَجْرِ، فَصَدَّقْتُ وَعْدَهُ، وَرَضِيْتُ قَضَاءَهُ، وَلَـنْ أَقُوْلَ، وَلَـنْ أَعْمَلَ إلا مَـا يُرْضِـيْهِ إنْ شَـاءَ اللهُ، (**وَلَيْسَ لأَيَّامِ الرَزِيَّةِ كَالصَبْرِ**)[104] :

سَأَصْبِـرُ حَتَّـى يَعْجِـزَ الـصَبْرُ عَـنْ صَـبْرِيْ

وَأَصْبِـرُ حَتَّـى يَحْكُـمَ اللهُ فِيْ أَمْـرِيْ

وَأَصْبِـرُ حَتَّـى يَعْلَـمَ الـصَبْرُ أَنَّنِـيْ

صَـبَرْتُ عَـلَى شَـيْءٍ أَمَـرَّ مِـنَ الـصَبْرِ[105]

وَسَوْفَ أُوَطِّنُ نَفْسِيْ عَلَى مُجَالَدَةِ الـحَزَنِ وَمُدافَعَتِهِ إنْ شَاءَ اللهُ.

وَلا خَـيْرَ فِـيْمَنْ لا يُـوَطِّنُ نَفْـسَهُ

عَـلَى نَائِبَـاتِ الـدَهْرِ حِـيْنَ تَنُـوْبُ[106]

وَحُزْنِيْ عَلَيْكِ يَا أُمَّاهُ سَيُهَوِّنُ كُلَّ حُزْنٍ بَعْدَهُ إِنْ شَاءَ اللهُ، وَمُصِيْبَتِيْ بِكِ يَا أُمَّاهُ سَتُرَقِّقُ بَعْدَكِ كُلَّ مُصِيْبَةٍ بِعَوْنِ اللهِ.

فَبَعْدَكِ لا آسَى عَلَى فَقْدِ هَالِكٍ
مَضَيْتِ فَهَوَّنْتِ المَصَائِبَ أَجْمَعَا[١٠٧]

فَأَحْتَسِبُ عَلَى اللهِ الرَحْمَنِ الرَحِيْمِ مُصَابِيَ الجَلَلَ بِكِ يَا أُمِّيَ الحَبِيْبَةَ الغَالِيَةَ.

- وَأَسْأَلُ الذِي اِسْتَوْدَعَنِيْ فِيْ أَحْشَائِكِ جَنِيْناً أَنْ يَرْحَمَكِ بَعْدَ أَنِ اسْتَوْدَعْنَاكِ الرَدْمَ، وَأَنْ يَجْعَلَكِ مِمَّنْ تُرَحِّبُ بِهِمُ الأَرْضُ، وَتَسْتَبْشِرُ بِهِمُ السَمَاءُ.
- وَأَسْأَلُ الذِيْ كَمْ جَعَلَ يَدَكِ وِسَاداً لِيْ أَنْ يَجْعَلَ أَرَائِكَ الجَنَّةِ وِسَادَكِ بَعْدَ أَنْ وَسَّدْنَاكِ الثَرَى.
- وَأَسْأَلُ الذِيْ سَقَانِيْ مِنْ ثَدْيَيْكِ رَضِيْعاً أَنْ يَسْقِيَكِ مِنْ حَوْضِ نبيِّهِ مُحَمَّدٍ شَرْبَةً لا تَظْمَئِيْنَ بَعْدَهَا أَبَداً.
- وَأَسْأَلُ الذِيْ أَمْتَعَنِيْ فِيْ حَيَاتِيْ مَعَكِ أَنْ يُمَتِّعَكِ مَتَاعاً سَرْمَدِيّاً بِالفِرْدَوْسِ الأَعْلَى مِنْ جَنَّتِهِ.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَأَسْأَلُ الذِيْ أَطْمَعُ بِرِضْوانِهِ أنْ يَتَغَمَّدَكِ بِعَفْوِهِ وَغُفْرَانِهِ، وَأنْ يَمْهَدَ لَكِ فِيْ أَعْلَى جِنانِهِ، وَأنْ يَفْسَحَ لَكِ فِيْ مَثْوَاكِ، وَأنْ يَجْعَلَ آخِرَتَكِ خَيْراً مِنْ أُوْلاكِ، وَأنْ يُكْرِمَ مَرْجِعَكِ، وَأنْ يُبَرِّدَ مَضْجَعَكِ، وَأنْ يَرْحَمَكِ رَحْمَةَ الأَبْرَارِ، وَأنْ يَحُطَّ عَنْكِ ثُقْلَ الأَوْزَارِ، وَأنْ يَكُوْنَ قَدِ اخْتَارَ لَكِ النُقْلَةَ مِنْ دَارِ البَوَارِ إلى مَنْزِلَةِ المُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ فِيْ دَارِ القَرَارِ.

أُمَّاهُ: إنِّيْ لا أَقُوْلُ الآنَ إلا مَا يَنْفَعُكِ حَقّاً، فَأَبْتَهِلُ إلى الله مَوْلايَ وَمَوْلاكِ، الحَيِّ القَيُّوْمِ، الذِيْ لا تَأْخُذُه سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ -جَلَّ جَلالُهُ وَعَزَّ سُلْطَانُهُ - الذِيْ قَالَ: ﴿**ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ [غافر: 60]، وَأَدْعُوْهُ لَكِ بِصَدْرٍ نَقِيٍّ، وَقَلْبٍ تَقِيٍّ، أَدْعُوْهُ ضَارِعاً إلَيْهِ وَمُوْقِناً بِاسْتِجَابَتِهِ، وَأَقُوْلُ:

اللَهُمَّ يَا خَيْرَ مَنْ نَزَلَ بِهِ المُؤَمِّلُوْنَ، وَاسْتَغْنَى بِفَضْلِهِ المُقِلُّونَ، وَوَلَجَ فِيْ سَعَةِ رَحْمَتِهِ المُذْنِبُوْنَ، يَا أَكْرَمَ الأَكْرَمِينَ: إنَّ لِكُلِّ ضَيْفٍ قِرًى، وَأُمِّيْ ضَيْفُكَ اليَوْمَ، وَهِيَ كَرِيْمَةٌ قَدِمَتْ عَلَيْكَ

وَأَنْتَ أَكْرَمُ الأَكْرَمِيْنَ، فَاجْعَلْ قِرَاهَا عَفْوَكَ وَرَحْمَتَكَ وَرِضْوَانَكَ وَجَنَّتَكَ يَا أَرْحَمَ الرَاحِمِيْنَ.

◉ اللّٰهُمَّ أَعِنْهَا عَلَى القَبْرِ وَضَمَّتِهِ، وَعَلَى يَوْمِ القِيَامَةِ وَرَوْعَتِهِ، وَعَلَى الحَشْرِ وَهَيْبَتِهِ، وَعَلَى المِيْزَانِ وَخِفَّتِهِ، وَعَلَى الصِرَاطِ وَزَلَّتِهِ، إِنَّكَ البَرُّ الرَحِيْمُ.

◉ اللّٰهُمَّ إِنَّ ذُنُوْبَ أُمِّيْ لا تَضُرُّكَ، وَإِنَّ رَحْمَتَكَ إِيَّاهَا لا تَنْقُصُكَ، فَاغْفِرْ لَهَا اللّٰهُمَّ يَا غَفُوْرُ مَا لا يَضُرُّكَ، وَأَعْطِهَا يَا جَوَادُ مَا لا يَنْقُصُكَ، إِنَّكَ أَنْتَ الجَوَادُ الكَرِيْمُ.

◉ اللّٰهُمَّ إِنِّيْ أَمْسَيْتُ أَرْجُوْكَ لَهَا، وَأَخَافُكَ عَلَيْهَا، اللّٰهُمَّ فَصَدِّقْ رَجَائِيْ بِكَ لَهَا، وَأَمِّنْ خَوْفِيْ وَإِشْفَاقِيْ مِنْكَ عَلَيْهَا، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ.

◉ اللّٰهُمَّ ارْحَمْ غُرْبَتَهَا، وَآنِسْ وَحْشَتَهَا، وَاسْتُرْ عَوْرَتَهَا يَوْمَ تُكْشَفُ الهِنَاتُ وَالسَوْءَاتُ.

◉ اللّٰهُمَّ آمِنْ رَوْعَاتِهَا يَوْمَ تَخْشَعُ الأَصْوَاتُ، وَتَخْتَلِفُ اللُغَاتُ، وَيُحْشَرُ الأَحْيَاءُ وَالأَمْوَاتُ، وَتكْثُرُ الحَسَرَاتُ عَلَى فَوَاتِ الحَسَنَاتِ،

وَتَعْنُو الوُجُوْهُ لِلوَاحِدِ القَهَّارِ، خَالِقِ اللَيْلِ وَالنَهَارِ، وَعَالِمِ الخَفَايَا وَالأَسْرَارِ.

إِلَهِيْ: مَا أَضْيَقَ الطَرِيْقَ عَلَى مَنْ لَمْ تَكُنْ أَنْتَ دَلِيْلَهُ !

إِلَهِيْ: مَا أَوْحَشَ الدَرْبَ عَلَى مَنْ لَمْ تَكُنْ أَنْتَ أَنِيْسَهُ !

◉ اللَهُمَّ فَكُنْ لَهَا وَلَنَا في الطَرِيْقِ دَلِيْلاً، وَكُنْ لَهَا وَلَنَا في الدَرْبِ أَنِيْساً، وَاجْبُرْ مُصَابَنَا بِهَا يَا جَابِرَ كُلِّ كَسِيْرٍ، وَاجْعَلْنَا مِمَّنْ يَتَلَقَّى أَمْرَكَ بِالقَبُوْلِ، وَأَقْدَارَكَ بِالتَسْلِيْمِ يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ.

(وَيَرْحَمُ اللهُ عَبْداً قَالَ آمِيْنَا)[108].

وَالحَمْدُ للهِ عَلَى قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُوْنَ.

وَأَقْفَرَتْ
إِذْ خَلَتْ مِنْ أُمِّيَ الدَارُ

◉ **أُمَّاهُ:** هَا أَنَا ذا يَا أُمَّاهُ أَنْصَرِفُ غَيْرَ مُخْتَارٍ مِنْ أَمَامِ قَبْرِكِ، فَأُوَلِّيْكِ ظَهْرِيْ، وَإِنَّهُ لَيَعُزُّ عَلَيَّ أَنْ أَدَعَكَ بَيْنَ جِيْرَانٍ لا يَتَزَاوَرُوْنَ، وَأَصْحَابٍ لا يَتَسَامَرُوْنَ، قَوْمٍ يَسْتَوِيْ عِنْدَهُمُ اللَيْلُ وَالنَهَارُ، وَالصَيْفُ وَالشِتَاءُ، وَالرَبِيْعُ وَالخَرِيْفُ:

بِأَرْضٍ خَلاءٍ لا حَبِيْبٌ مُوَاصِلٌ
وَلا زَائِرٌ مِنْهُمْ زِيَارَةَ مُعْتَادِ[109]

وَإِنَّهُ لَيَحْزُنُنِيْ أَنْ أَتْرُكَكِ تَسْفِيْ عَلَى قَبْرِكِ الرِيَاحُ حَبَّاتِ الرَمْلِ، وَإِنَّ قَلْبِيْ لَيَبْكِيْ عَلَيْكِ وَعَلَى مَا انْصَدَعَ مِنَ الشَمْلِ:

رَجَعْنَا وَافَرْنَاكِ غَيْرَ فَرِيْدَةٍ
مِنَ البِرِّ وَالمَعْرُوْفِ وَالخَيْرِ وَالكَرَمْ[110]

◉ **أُمَّاهُ:** هَا أَنَا ذا يَا أُمَّاهُ أَنْقَلِبُ إِلى بَقِيَّةِ أَهْلِيْ، وَلَكِنْ بِلا سُرُوْرٍ؛ فَلَقَدْ مَاتَ السُرُوْرُ بِمَوْتِكِ يَا (أُمَّ عَبْدِالله):

وَمَهْمَا تَكُنْ مِنْ ضِحْكَةٍ بَعْدَ فَقْدِهَا
فَإِنِّيْ وَإِنْ أَظْهَرْتُهَا لَحَزِيْنُ
سَلامٌ عَلَى أَيَّامِنَا قَبْلَ مَوْتِهَا
إِذِ الدَارُ دَارٌ وَالسُرُوْرُ فُنُوْنُ[111]

● **أُمَّاهُ:** لَئِنْ عَزَّتْنِيْ يَا أُمَّاهُ حَيَاتُكِ لَقَدْ هَدَّتْنِيْ يَا أُمَّاهُ وَفَاتُكِ:

مَا هَدَّنِيْ مَرُّ السِنِيْنَ وَإِنَّمَا
أَمْسَيْتُ بَعْدَكِ بِالأَسَى مَهْدُوْدَا[112]

وَأَقْبَلْتُ عَلَى الدَارِ التيْ طَالَمَا أَنِسَتْ بِأُمِّيْ رَحِمَهَا اللهُ، أَقْبَلْتُ عَلَيْهَا، وَقَدْ فَارَقَهَا أُنْسُهَا؛ بِرَحِيْلِ مُؤْنِسِهَا؛ وَمَا مِنْ دَارٍ مُلِئَتْ فَرَحاً إلا امْتَلأَتْ يَوْماً مِنَ الأَيَّامِ تَرَحاً، وَوَقَفْتُ أَمَامَ البَابِ حَائِرَةً قَدَمِيْ بَيْنَ إِقْبَالٍ وَإِدْبَارٍ:

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

إِنِّيْ وَقَفْتُ بِبَابِ الدَارِ أَسْأَلُهَا
عَنِ الحَبِيْبِ الذِيْ قَدْ كَانَ لِيْ فِيْهَا
فَمَا وَجَدْتُ بِهَا طَيْفاً يُكَلِّمُنِيْ
سِوَى نُوَاحِ حَمَامٍ فِيْ أَعَالِيْهَا
يَا دَارُ أَيْنَ أَحِبَّائِيْ لَقَدْ رَحَلُوْا
وَيَا تُرَى أَيَّ أَرْضٍ قَدْ غَدَوا فِيْهَا
لا يَعْرِفُ الشَوْقَ إلا مَنْ يُكَابِدُهُ
وَلا الصَبَابَةَ إلا مَنْ يُعَانِيْهَا
لا يَسْهَرُ اللَيْلَ إلا مَنْ بِهِ أَلَمٌ
لا تُحْرِقُ النَارُ إلا رِجْلَ وَاطِيْهَا[113]

وَدَخَلْتُ الدَارَ التِيْ أَمْسَتْ مِنْ أُمِّيْ خَالِيَةً بَعْدَ أنْ ظَلَّتْ زَمَناً جَمِيْلاً بِهَا حَالِيَةً، دَخَلْتُهَا وَإِنِّيْ لأَكَادُ أَسْمَعُ نَشِيْجَ بُكَائِهَا وَأَنِيْنَهَا عَلَى فَقِيْدَتِهَا الغَالِيَةِ رَحِمَهَا اللهُ:

وَلَقَدْ قَصَدْتُ الدَارَ بَعْدَ رَحِيْلِهَا
وَوَقَفْتُ فِيْهَا وِقْفَةَ الحَيْرَانِ

وَسَـــأَلْتُهَا لَـــكِنْ بِـــغَيْرِ تكَـــلُّمِ
فَتَكَلَّمَـــتْ لَـــكِنْ بِـــغَيْرِ لِـــسَانِ
نَادَيْتُهَـــا يَـــا دَارُ أَيْـــنَ أُمَيْـــمَتِيْ
أَيْـــنَ التِـــيْ مَـــلأْتِكِ بِـــالتَحْنَانِ؟
قَالَـــتْ وَقَـــدْ فَـــاضَتْ مَآقِيْهَـــا وَفِـــيْ
جَنَبَاتِهَـــا رَجْـــعُ صَـــدَى الأَحْـــزَانِ
رَحَلَـــتْ بِـــلا رَجْـــعٍ فَيَـــا أَسَـــفَا عَـــلَى
أُمِّ المَـــكَارِمِ رَبَّـــةِ الإِحْـــسَانِ[114]

وَحَاوَلْتُ أنْ أَكُوْنَ مُتَجَلِّداً عِنْدَمَا أَدْخُلُ الدَارَ، وَأُقَابِلُ أَحْبَاباً يُشَارِكُوْنَنِيْ فِيْ فَقْدِ الحَبِيْبَةِ رَحِمَهَا اللهُ؛ كَيْ أَكُوْنَ قُدْوَةً تَشُدُّ العَزَائِمَ، مَعَ أنَّ كُلَّ شَيْءٍ في الدَارِ يَبْكِيْ، ويُبْكِي البَوَاكِيَ ؛ فَكُلُّ بُقْعَةٍ وَكُلُّ صَغِيْرٍ وَكُلُّ كَبِيْرٍ يُذَكِّرُ وَلا يُنْسِيْ، وَيُشْجِيْ وَلا يُسْلِيْ، وَبِلا شُعُوْرٍ...

تَلَفَّـــتُ عَـــلِّيْ أنْ أَرَاهَـــا فُجَـــاءَةً
وَأَصْـــغَيْتُ عَـــلِّيْ أنْ أَفُـــوْزَ بِـــكِلْمَةِ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَقُلْـــتُ هُنَـــا عَاشَـــتْ وَهَـــذَا مَكَانُهَـــا
وَكِـــدْتُ أُنادِيْهَـــا لأَطْـــرُدَ وَحْـــشَتِيْ
وَقَلَّبْـــتُ طَـــرْفِيْ فِيْ يَمِـــيْنٍ وَشَـــمْأَلٍ
فَلَـــمْ أَلْـــقَ إلا مَـــا يُهَـــيِّجُ حَـــسْرَتِيْ[115]

◉ هَهُنَا مُصَلاهَا، وَحِيْنَ مَرَرْتُ بِـهِ تَوَهَمْتُ أَنَّنِـيْ أَسْمَعُ أَنِيْنَهُ؛ أَلَـمْ يَقُلْ أَمِيْرُ المؤمنينَ عَلِيُّ بنُ أبي طَالِبٍ - رضي الله عنه -: (**إذا مَاتَ العَبْدُ الصَالِحُ بَكَى عَلَيْهِ مُصَلاهُ مِنَ الأَرْضِ، وَمَصْعَدُ عَمَلِهِ مِنَ السَمَاءِ**)؟.

◉ وَهَهُنَـا مَكَـانُ جُلُوْسِـهَا مَـا زَالَ نَـشْوَانَ بِـطِـيْبِ حَـدِيْثِهَا....

◉ وَهَهُنَا مُجْتَمَعُهَا مَعَ زُوَّارِهَا عَلَى الطَعَامِ يَشْهَدُ بِكَرَمِهَا....

◉ وَهَهُنَا كَانَ مَكَانُ نَوْمِهَا وَمَعَهَا أَنِيْسَاهَا: (رَيَّانُ) وَالـمِذْيَاعُ الذِيْ لا يُسْمِعُ إلا إذاعَةَ القُرْآنِ الكَرِيْمِ....

أَمْـــسَيْتُ فـــي الـمَاضِـــيْ أَعِـــيْشُ كَـــأَنَّمَا
قَـــطَعَ الزَمَـــانُ طَرِيْـــقَ أَمْـــسِـيْ عَـــنْ غَـــدِيْ

وَالطَّيْرُ صَادِحَةٌ عَلَى أَفْنَانِهَا
تُبْكِي الرُبَى بِأَنِيْنِهَا المُتَجَدِّدِ
قَدْ طَالَ تَسْهِيْدِيْ وَطَالَ نَشِيْدُهَا
وَمَدَامِعِيْ كَالطَّلِّ فِي الغُصْنِ النَدِي
فَإِلَى مَتَى صَمْتِيْ كَأَنِّيْ زَهْرَةٌ
خَرْسَاءُ لَمْ تُرْزَقْ بَرَاعَةَ مُنْشِدِ[116]

وَبَدَتِ الدَارُ مُوْحِشَةً مُقْفِرَةً عَلَى الرَغْمِ مِنْ تَقَاطُرِ أَفْوَاجِ المُعَزِّيْنَ عَلَيْهَا؛ فَلَقَدْ فَقَدَتِ الدَارُ أَعَزَّ مَنْ كَانَ فِيْهَا، (**وَبِأَهْلِهَا تَغْلُو الدِيَارُ وَتَرْخُصُ**)[117]، أَجَلْ، لَقَدْ أَظْلَمَتْ إذ خَلَتْ مِنْ أُمِّيَ الدَارُ، (**بَلْ أَقْفَرَتْ إذ خَلَتْ مِنْ أُمِّيَ الدَارُ**)[118].

وَنَادَى لِصَلاةِ العَصْرِ مُنادِي الحَقِّ وَالفَلاحِ: (**حَيَّ عَلَى الصَلاةِ، حَيَّ عَلَى الفَلاحِ**)، فَأَجَبْتُ المُنَادِيَ طَلَباً لِلْفَلاحِ وَلِلرَاحَةِ التِيْ لا أَحَدَ كَانَ أَحْوَجَ مِنِّيْ إِلَيْهَا بَعْدَ أَنِ اكْتَأَبَ القَلْبُ، وَضَاقَ الصَدْرُ،

وَاحْتَبَسَتِ الدُّمُوْعُ؛ أَلَمْ يَقُلْ رَسُوْلُنَا : (يَا بِلالُ أَرِحْنَا بِالصَلاةِ)؟...

وَبَعْدَ الصَلاةِ أَقْبَلْتُ مِنَ المَسْجِدِ تُجَاهَ الدَارِ الحَزِيْنَةِ مَرَّةً أُخْرَى، وَلَسْتُ أَدْرِيْ: لِمَاذَا أَصْرَرْتُ عَلَى أَنْ أَمْلأَ مِنْ بَعِيْدٍ عَيْنِيَ مِنْ مَرْأَى دَارِ أُمِّيْ رَحِمَهَا اللهُ؟.

لَقَدْ نَظَرْتُ إِلَيْهَا نَظَرَ الشَحِيْحِ إلى غَرِيْمٍ مُفْلِسٍ، وَنَظَرَ مَنْ كَأَنَّهُ يَرَاهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَحِيْنَ بَدَأْتُ أَرْمُقُ الدَارَ التِيْ طَالَمَا مَلأَتْ قَلْبِيْ زَهْوًا بِأَنْ كَانَ لأُمِّيْ -رَحِمَهَا اللهُ- بَيْتٌ يُنَاسِبُ مَقَامَهَا فِيْ قُلُوْبِنَا، حِيْنَ رَفَعْتُ عَيْنَيَّ صَوْبَ الدَارِ بَدَأَتْ صُوْرَتُهَا تَخْبُوْ فِيْ أَدْمُعِيْ:

ظَلَلْتُ كَأَنِّيْ مِنْ وِرَاءِ زُجَاجَةٍ
إلى الدَارِ مِنْ فَرْطِ الصَبَابَةِ أَنْظُرُ
فَعَيْنَايَ طَوْراً تَغْرَقَانِ مِنَ البُكَا
فَأَعْشَى وَطَوْراً تَحْسِرَانِ فَأُبْصِرُ
فَلا مُقْلَتِيْ مِنْ غَامِرِ الدَمْعِ تَنْجَلِيْ
وَلا دَمْعَتِيْ مِنْ شِدَّةِ الوَجْدِ تُنْثَرُ

وَلَـيْسَ الـذِيْ يَجْـرِيْ مِـنَ العَـيْنِ دَمْعَهَـا
وَلَكِنَّهَـا نَفْـسِيْ تَـذُوْبُ فَتَقْطُـرُ[119]

فَهَـذَا الـمَنْـزِلُ الـذِيْ طَالَمَـا أَسْـعَدَنِيْ أَمْـسَى الآنَ يُحْزِنُنِـيْ وَيُشْجِـيْـنِـيْ:

هَـذِيْ مَنَـازِلُ قَـدْ هَـيَّجْنَ لِـيْ شَـجَناً
وَكُنْـتُ أَعْهَـدُ فِـيْهَا مُـشْتَكَى الـشَجَنِ[120]

وَهَذِهِ الدَارُ التِيْ طَالَمَا أَضْحَكَتْنِـيْ هَا هِـيَ ذِيْ قَدْ صَارَتِ اليَوْمَ بَعْدَ الأُنْسِ تُبْكِيْنِيْ :

عَهْـدِيْ بِـهَا تَكْتَـسِيْ أَبْـهَاجَ غُـرَّتِهَا
وَالبِـشْرُ يَقْطُـرُ زَهْـواً مِـنْ نَوَاحِـيْهَا
فَاعْجَـبْ وَمَـا قَـدْ أَرَاهَـا دَهْرُهَـا عَجَـبٌ
مَـنْ كَـانَ يُـضْحِكُهَا قَـدْ صَـارَ يُبْكِـيْهَا[121]

وَذَرَفْتُ دَمْعَةً غَالِيَةً مِنْ عَيْنِ عَصِيِّ الدَمْعِ شِيْمَتُهُ الصَبْرُ، ذَرَفْتُهَا حِيْنَ تَذَكَّرْتُ أَنَّنِيْ سَأَدْخُلُ الدَارَ، وَلَنْ أَجِدَ فِـيْهَا حَبِـيْبَةَ القَلْبِ (أُمِّيْ) بانْتِظَارِيْ، وَأَنَّهَا قَدْ رَحَلَتْ رِحْلَةً لا عَوْدَةَ مِنْهَا:

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

فَـــلا تَـــسْأَلَنَّ القَلْـــبَ عَمَّـــنْ أَحَبَّـــهُ
فَفِـــي القَلْـــبِ مِـــنْ فَقْـــدِ الحَبِيْـــبَةِ نَـــارُ
وَهَـــلْ أَدْخُلَـــنَّ الـــدَارَ مِـــنْ بَعْـــدِ أَهْلِهَـــا
فَـــمَا الـــدَارُ مِـــنْ بَعْـــدِ الحَبِيْـــبَةِ دَارُ
لَقَـــدْ أَوْحَـــشَتْ دَارُ الحَبِيْـــبَةِ بَعْـــدَهَا
وَغَـــارَتْ نُجُـــوْمُ الأُنْـــسِ فَهْـــيَ سِرَارُ[122]

وَمَا زَالَتْ جُمُوْعُ المُعَزِّيْنَ تَتَابَعُ جَمَاعَاتٍ إِثْرَ جَمَاعَاتٍ، فَأَفْوَاجٌ دَاخِلَةٌ، وَأُخْرَى خَارِجَةٌ، وَالجَمِيْعُ يَسْعَى جَاهِداً فِيْ مُحَاوَلَةِ تَخْفِيْفِ المُصَابِ وَتَسْكِيْنِ اللَوْعَةِ، وَعِنْدَئِذٍ أَدْرَكْتُ عَظَمَةَ هَذَا الدِيْنِ الحَنِيْفِ وَأَخْلاقَهُ النَبِيْلَةَ؛ فَمَا أَعْظَمَ أَثَرَ التَعْزِيَةِ فِيْ نَفْسِ المُعَزَّى!!! وَقَدْ بَالَغَ مَنْ قَالَ:

يُعَـــزِّي الـــمُعَزِّيْ ثُـــمَّ يَمْـــضِيْ لِـــشَأْنِهِ
وَيَبْقَـــى الـــمُعَزَّى فِيْ أَحَـــرَّ مِـــنَ الـــجَمْرِ[123]

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَانْفَضَّتِ الـجُمُوْعُ، وَحَانَ وَقْتُ النَوْمِ لِـمَـنْ يُطِيْقُهُ، فَـدَخَلْتُ غُرْفَةَ (أُمِّيْ) -رَحِمَهَا اللهُ- التي طَـالَـمَـا آثَرَتْـنِـيْ بـهَا حِـيْـنَـمَـا أَحُـلُّ ضَـيْفاً عَلَيْهَـا، فَوَجَـدْتُ فِـيْهَا مَـنْ يَجْمَـعُ ثِيَابَهَـا وَأَشْـيَاءَهَا الـخَاصَّةَ، وَكَأَنَّـهُـمْ يَسْتَعْجِلُوْنَ مَحْوَ آثَـارِهَا الـمُشْجِـيَةِ، وَلَكِنْ أَنَّى لَهُمْ أنْ يَمْحُوا آثَـارَهَا مِنْ فُؤَادِيَ الذِيْ أَحَبَّهَا كَمَا لَـمْ يُحِـبَّ أَحَـداً فِي الدُنْيَا مِثْلَهَا رَحِمَهَا اللهُ، فَهَاجَتِ الأَشْجَانُ فِيْ قَلْبِيْ، وَتَحَشْرَجَتِ الدُمُوْعُ فِيْ حَلْقِيْ، وَتَلَعْثَمَتِ الكَلِمَاتُ عَلَى لِسَانِيْ، وَوَارَيْتُ دَمْعَةَ عَيْنِيْ:

كَـــمْ عَـــبْرَةٍ مَوَّهْتُهَـــا بـــأَنَامِلِيْ
وَسَـــتَرْتُهَا مُتَجَمِّـــلاً بـــرِدَائِيْ[124]

وَتَقَلَّبْتُ عَلَى الفِرَاشِ كَـاللَدِيْغِ الـمُسَهَّدِ يَائِساً مِنَ النَوْمِ:

إِنْ كَـــانَ لِلنَّـــاسِ نَـــوْمٌ يَهْنَئُـــوْنَ بـــهِ
فَـــإِنَّ جَفـــنِيَ لَـــمْ يَهْنَـــأْ بـــتَغْمِيْضِ
كَـــأَنَّ جَنْبـــيَ فِي الظَلْـــمَاءِ تَقْرِضُـــهُ
عَـــلَى الحَـــشِيَّةِ أَطْـــرَافُ الـــمَقَارِيْضِ[125]

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَأَذَلْتُ دَمْعاً مِنْ خَلائِقِهِ الكِبْرُ[126]، وَكَانَتْ لَيْلَةً لَيْسَتْ كَاللَيَالِيْ؛ فَفِيْهَا النَوْمُ وَدَّعَ مُقْلَتِيْ، وَاللَيْلُ رَدَّدَ أَنَّتِيْ، وَالفَجْرُ لَوْ بَانَتْ بَشَائِرُهُ بَعْدَ رَحِيْلِ أُمِّيْ لَنْ يُبَدِّدَ وَحْشَتِيْ:

بِتُّ سَاجِي الطَرْفِ وَالحُزْنُ يُلِحُّ

وَالدُجَى إنْ يَمْضِ جُنْحٌ يَأْتِ جُنْحُ

يَلْمَعُ الدَمْعُ بِعَيْنِيْ شَرَراً

وَلِزَنْدِ الحُزْنِ فِي الأَحْشَاءِ قَدْحُ[127]

وَمَا أَطْوَلَ اللَيْلَ عَلَى السَاهِرِ!!![128]، وَلَيْلُ الحَزِيْنِ بِلا آخِرِ[129]:

تَطَاوَلَ لَيْلِيْ لَمْ أَنَمْهُ تَقَلُّباً

كَأَنَّ فِرَاشِيْ حَالَ مِنْ دُوْنِهِ الجَمْرُ[130]

فَكَيْفَ لِمِثْلِيْ أنْ يَنَامَ؟

وَكَيْفَ تَرْقُدُ عَيْنٌ صَارَ مُؤْنِسُهَا

تَحْتَ التُرَابِ بِوَسْطِ القَبْرِ والكَفَنِ[131]

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

- أَيْنَ مَنْ كَانَ يُؤْنِسُنِيْ بِحَدِيْثِهِ العَذْبِ قَبْلَ المَنَامِ؟.
- أَيْنَ مَنْ كَانَ يَتَفَقَّدُ فِرَاشِيْ قَبْلَ المَنَامِ؟.
- أَيْنَ مَنْ كُنْتُ أَخْشَى أَنْ أَسْعُلَ؛ فَأَحْرِمَهُ لَذِيْذَ المَنَامِ؟.
- أَيْنَ مَنْ كَانَ يُوْقِظُنِيْ لِصَلاةِ الفَجْرِ وَالقِيَامِ؟.
- أَيْنَ.... وَأَيْنَ.... وأَيْنَ....؟.

وَأَسْئِلَةٌ لا تَنْتَهِيْ، وَلَكِنْ لا جَوَابَ.... إلا جَوَابٌ واحِدٌ يَأْتِيْ بِلِسَانِ الحَالِ، لا بِلِسَانِ المَقَالِ، هُوَ: (لَقَدْ مَاتَتْ).

أَجَلْ، لَقَدْ مَاتَتْ.... (**أُمُّ عبدِالله**)... وَغَابَ عَنِّيْ كِيَانُهَا وَحُبُّهَا وَعَطْفُهَا وَحَنَانُهَا:

وَلَمْ يَبْقَ إلا ذِكْرَيَاتٌ شَجِيَّةٌ

وَطَيْفٌ يُوَاتِيْنِيْ إذا الطَرْفُ هَوَّمَا[132]

وَبَقِيْتُ وَحْدِيْ أَهِيْمُ فِيْ هَذِهِ الدُنْيَا المُوْحِشَةِ بِلا أَنِيْسٍ، وَإِنْ كَثُرَ حَوْلِيَ الأَحْيَاءُ، وَإِنَّهُ لَبَقَاءٌ إلى حِيْنٍ:

وَلَئِنْ بَقِيْتُ وَقَدْ هَلَكْتِ فَإِنَّ لِيْ

أَجَلاً وَإِنْ لَمْ أُحْصِهِ مَعْدُوْدَا

لا مَـــوْتَ لِـــيْ إِلاَ إِذَا الأَجَـــلُ انْقَـــضَى
فَهُنْـــــاكَ لاَ أَتْجَـــــاوَزُ الـــــمَحْدُوْدَا
ومَـــعَ البَقَـــاءِ فَإِنـــنِّيْ بـــكِ لاَحِـــقٌ
مِـــنْ عَـــنْ قَرِيْـــبٍ لاَ أَرَاهُ بَعِيْـــدَا[133]

◉ رَحِمَ اللهُ أُمِّيْ وَأُمَّهَاتِ الـمُسْلِمِيْنَ رَحْمَةً وَاسِعَةً، وَجَمَعَنِيْ بِـأُمِّيْ جِـوَارَ نبيِّنا مُحَمَّدٍ في الفِرْدَوْسِ الأَعْلَى مِنَ الـجَنَّةِ.

◉ رَحِمَ اللهُ أُمِّيْ وَأُمَّهَاتِ الـمُسْلِمِيْنَ رَحْمَةً وَاسِعَةً، وَجَمَعَنِيْ بِـأُمِّيْ جِـوَارَ نبيِّنا مُحَمَّدٍ في الفِرْدَوْسِ الأَعْلَى مِنَ الـجَنَّةِ.

◉ رَحِمَ اللهُ أُمِّيْ وَأُمَّهَاتِ الـمُسْلِمِيْنَ رَحْمَةً وَاسِعَةً، وَجَمَعَنِيْ بِـأُمِّيْ جِـوَارَ نبيِّنا مُحَمَّدٍ في الفِرْدَوْسِ الأَعْلَى مِنَ الـجَنَّةِ.

◉ رَحِـمَ اللهُ أَبِـيْ وَآبـاءَ الـمُـسْلِمِيْنَ رَحْمَةً وَاسِعَةً، وَجَمَعَنِـيْ بِـأَبِـيْ جِـوَارَ نبيِّنا مُحَمَّدٍ في الفِرْدَوْسِ الأَعْلَى مِنَ الـجَنَّةِ.

◉ رَحِـمَ اللهُ أَبِـيْ وَأُمِّـيْ وَآبـاءَ الـمُـسْلِمِيْنَ وَأُمَّـهَاتِهِمْ رَحْمَةً وَاسِعَةً، وَجَمَعَنِيْ بِـوَالِدَيَّ جِـوَارَ نبيِّنا مُحَمَّدٍ في الفِـرْدَوْسِ الأَعْلَى مِنَ الـجَنَّةِ.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَرَحِمَ اللهُ كُلَّ مَنْ رَفَعَ يَدَيْهِ مُتَضَرِّعاً، وَدَعَا صَادِقاً مُخْلِصاً لِيْ وَلأُمِّيْ وَأَبِيْ بِالرَحْمَةِ وَالغُفْرَانِ، وَالفَوْزِ بِالجَنَّةِ، وَالعِتْقِ مِنَ النِيْرَانِ.

وَلا قَرَّتْ عَيْنُ مَنْ لا يَبَرُّ وَالِدَيْهِ.

وَلا نَامَتْ عَيْنُ مَنْ يَعُقُّ وَالِدَيْهِ.

وَالحَمْدُ للهِ عَلَى قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ.

عَبْرَةٌ مِنْ بَحْرِ دَمْعِي

◉ إلى مَنْ رَحَلَتْ؛ لِتَزْرَعَ فِيْ قَلْبِيَ الأَسَى والحُزْنَ بِغَيْرِ اِخْتِيَارٍ مِنْهَا وَلا مِنِّيْ.

◉ إلى مَنْ تَمَنَّتْ بَعْدَ رَحِيْلِهَا كُلُّ أُمٍّ لَوْ كَانَتْ هِيَ الرَاحِلَةَ؛ بِسَبَبِ كَثْرَةِ دُعَاءِ النَاسِ لَهَا وَثَنَائِهِمْ عَلَيْهَا.

◉ إلى مَنْ أَحْيَتْ بِمَوْتِهَا القُلُوْبَ، فَصَحَّ فِيْهَا قَوْلُ القَائِلِ: **(عَجَباً لأَمْوَاتٍ تَحْيَا بِذِكْرِهِمُ القُلُوْبُ، وَعَجَباً لأَحْيَاءٍ تَمُوْتُ بِمُجَالَسَتِهِمُ القُلُوْبُ)**.

◉ إلى مَنْ يُذَكِّرُنِيْ بِهَا كُلُّ شَيْءٍ:

أَذَانُ المُؤذِّنِ؛ فَمَا أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ إلا تَذَكَّرْتُ تَسْبِيْحَ أُمِّيْ وَقِرَاءَةُ الإِمَامِ؛ فَمَا تَلا إمامٌ آيَةً إلا جَرَتْ دَمْعَتِيْ أَسَفاً عَلَى فِرَاقِ أُمِّيْ وَنَسِيْمُ الصَبَاحِ؛ فَمَا هَبَّتْ نَسْمَةٌ إلا وَجَدْتُ فِيْهَا شَيْئاً مِنْ حَنَانِ أُمِّيْ وَشَمْسُ الأَصِيْلِ فَمَا أَفَلَتْ شَمْسٌ إلا تَدَاعَتْ إلى مُخَيِّلَتِيْ صُوْرَةُ قَبْرِ أُمِّيْ وَشَفَقُ الغُرُوْبِ؛ فَمَا احْمَرَّ شَفَقٌ إلا ذَكَرْتُ سَاعَةَ وَفَاةِ أُمِّيْ

وَرُؤْيَـةُ أَيِّ أُمٍّ؛ فَـمَا لَمَحْـتُ أُمّـاً إلا خَفَـقَ قَلْبِـيْ حَزَنـاً عَـلَى رَحِـيْلِ أُمِّـيْ وَصَـوْتُ أَيِّ أُمٍّ؛ فَـمَا سَـمِعْتُهُ إلا تَـشَوَّفَتْ أُذُنَـايَ بِـيَأْسٍ لأَحَادِيْـثِ أُمِّـيْ بَلْ كُلُّ هَمْزَةٍ وَمِيْمٍ فَمَا مِنْ حَرْفٍ إلا يَنْشُرُ صَفَحَاتِ الأُنْسِ مِنْ حَيَاةِ أُمِّيْ

◉ إلى مَنْ صَيَّرَتْنِيْ:

أَبِـيْتُ عَـلَى الـذِكْرَى وَأَصْـحُوْ بِـمِثْلِـهَا

وَإِنْ نِمْـتُ لَـمْ يَـبْرَحْ خَيَالُـكِ زَائِـرِيْ(134)

◉ إلى مَنْ جَعَلَتْنِيْ أَنَامُ عَلَى دَمْعَةٍ سَخِيْنَةٍ، وَأَصْحُوْ عَلَى دَمْعَةٍ سَخِيْنَةٍ.

◉ إلى أُمِّيَ الحَبِيْبَةِ -رَحِمَهَا اللهُ- حَيْثُ هِيَ هُنَاكَ تَحْتَ أَطْبَاقِ الثَرَى.

◉ إلَيْكِ يَا أُمِّيَ الغَالِيَةَ - بَعْدَ أَنْ أَسْأَلَ اللهَ لَكِ المَغْفِرَةَ والرِضْوَانَ - أُهْدِيْ:

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

«عَبْرَةً مِنْ بَحْرِ دَمْعِي»[135]

أُحِبُّكِ يَا أُمِّيْ عَلَى القُرْبِ والبُعْدِ
أُحِبُّكِ يَا أُمِّيْ وَلَوْ كُنْتِ فِي اللَحْدِ
أُحِبُّكِ حُبّاً لَوْ مَزَجْتُ رَحِيْقَهُ
بِبَحْرٍ لَصَارَ البَحْرُ أَحْلَى مِنَ الشَهْدِ
أُحِبُّكِ حُبّاً لَوْ يَسِيْرُ سَفِيْنُهُ
عَلَى اليَمِّ أَلْهَاهُ عَنِ الجَزْرِ وَالمَدِّ
أُحِبُّكِ حُبّاً لَوْ أَظَلَّ سَحَابُهُ
لأَهْمَى بِلا بَرْقٍ يَلُوْحُ وَلا رَعْدِ
أُحِبُّكِ حُبّاً لَوْ سَقَيْتُ بِمَائِهِ
فَيَافِيَ نَجْدٍ أَوْرَقَ الشِيْحُ فِيْ نَجْدِ
أُحِبُّكِ حُبّاً لَوْ بَسَطْتُ رِدَاءَهُ
عَلَى القَاعِ فَاقَ الرَوْضَ بِالعُشْبِ وَالرَنْدِ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

أُحِبُّـــكِ حُبّـــاً لَـــوْ نَثَـــرْتُ عَبَـــيْرَهُ

بِـدَرْبِ عَـرُوْسٍ مَـا اشْـتَهَتْ عِطْرَهَـا الـوَرْدِيْ

أُحِبُّـــكِ حُبّـــاً لَـــوْ نَقَـــشْتُ حُرُوْفَـــهُ

عَـلَى الـصَخْرِ ذَابَ الـصَخْرُ مِـنْ شِـدَّةِ الوَجْـدِ

أُحِبُّـــكِ حُبّـــاً لَـــوْ قَـــدَحْتُ زِنَـــادَهُ

عَـــلَى التـــرُبِ أَوْرَى كَالـهَـــشِيْمِ مَـــعَ الزَنْـــدِ

أُحِبُّـــكِ حُبّـــاً لَـــوْ أَعَـــرْتُ قَلِيْلَـــهُ

لِغَـــيْرِيَ لَـــمْ يَكْـــتُمْ عُقُوْقـــاً وَلَمْ يُبْـــدِ

أُحِبُّـــكِ حُبّـــاً لَـــوْ يَفِـــيْضُ يَـــسِيْرُهُ

عَـلَى النَـاسِ عَـاشَ النَـاسُ طُـرّاً بِـلا حِقْـدِ

أُحِبُّـــكِ حُبّـــاً لَـــوْ تـــقَادَمَ عَهْـــدُهُ

لَكَـــانَ كَـــطِيْبِ العُـــوْدِ يَزْكُـــوْ مَـــعَ العَهْـــدِ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

أُحِبُّـــكِ حُبّـــاً تَزْدَهِـــيْهِ لَطَافَـــةٌ

أَرَقُّ مِـــنَ الدِيْـــبَاجِ فِـــيْ نَـــاعِمِ الأَيْـــدِيْ

أُحِبُّـــكِ حُبّـــاً لَيْلُـــهُ كَنَـــهَارِهِ

غَنِـيٌّ عَـنِ الـشَمْسِ وَلا البَـدْرَ يَـسْتَجْدِيْ

أُحِبُّـــكِ حُـــبّاً صَيْفُـــهُ كَـــشِتَائِهِ

رَبِـيْـــعٌ مَرِيْـــعٌ لا يُكَـــدَّرُ بِـالـــوِرْدِ

أُحِبُّـــكِ حُـــبّاً فَـــاقَ حُبِّـــيْ أَحِبَّتِـــيْ

فَلَيْـــسَ لِحُـــبِّ الأُمِّ فِي القَلْـــبِ مِـــنْ نِـــدِّ

أُحِبُّـــكِ حُـــبّاً أَعْجَـــزَ الـــشِعْرَ وَصْفُـــهُ

كَـمَا أَعْجَـزَ الوُصَّـافَ وَصْـفُ صَـبَا نَجْـدِ

أُحِبُّـــكِ حُبّـــاً لَـــمْ يَـــرَ النَـــاسُ مِثْلَـــهُ

بـــهِ تُـــضْرَبُ الأَمْثـــالُ فِي صَـــادِقِ الـــوُدِّ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

أُحِبُّـــكِ حُبّـــاً مَـــا يُبَـــاعُ وَيُـــشْتَرَى

لأنَّ كُنـــوْزَ الأرْضِ دُوْنَ الـــذِيْ عِنْـــدِيْ

أُحِـــبُّكِ قَـــوْلاً وَاعْتِقـــاداً وَمَـــسْلَكاً

جِـهَاراً وَمَـا أُخْفِـيْهِ فَـوْقَ الَـذِيْ أُبْـدِيْ

وَأَشْـــهَدُ أَنِّـــيْ رَغْـــمَ ذَاكَ مُقَـــصِّرٌ

بِـحَقِّ الَتِـيْ أَعْطَـتْ كَثِـيْراً وَلَـمْ تَـكْدِ

وَحُـــبُّكِ يَـــا أُمِّـــيْ وَلِـــيْداً عَرَفْـــتُهُ

وَأَرْضَـــعْتِنِيْ إِيَّـــاهُ مُـــذْ كُنْـــتُ فِي الـــمَهْدِ

زَرَعْـــتِ وَأَسْقَـــيْتِ فَـــأَوْرَقَ وَاسْتَـــوَى

وَمَـا أَطْيَـبَ الأَثْـمَارَ فِـيْ مَوْسِـمِ الحَـصْدِ

وَمَـــا سَاءَنِـــيْ إلا تَـأَخُـــرُ جَنْيِـهَـــا

فَبَاذِرُهَـــا مَـــا نَـــالَ مِنْهَـــا سِـوَى الكَـــدِّ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

أُحِبُّـــكِ يَـــا أُمِّـــيْ وَحَبْـــلُ مَـــوَدَّتِيْ

عَـسِيْرٌ عَـلَى القَـطْعِ وَيَقْـوَى مَـعَ الـشَدِّ

أُحِبُّـــكِ وَالأَحْـــزَانُ لَيْـــلٌ يَحُـــوْطُنِيْ

وَمَـــا أَطْـــوَلَ اللَيْـــلَ البَهِـــيْمَ بِـــلا سَـــعْدِ

إذا غَرَبَـــتْ شـــمْسٌ بَكَيْـــتُ أُمَيْمَتِـــيْ

وَعِنْـدَ طُلُـوْعِ الـشَمْسِ أَبْكِـيْ مِـنَ الـسُهْدِ

وَإِنْ بَـزَغَ البَـدْرُ بَـدَا كَاسِـفَ الـرُؤَى

تَوَشَّـــحَ فِيْ هَـــالٍ مِـــنَ الـــحُزْنِ مُرْبَـــدِّ

وَتَـبْدُوْ عُيُـوْنُ اللَيْـلِ غِـيْضَ سَـنَاؤُهَا

وَكُـــنْتُ بِـــهَا قَـــبْلاً إِذَا تِـــهْتُ أَسْـــتَهْدِيْ

وَحَتَّـــى نَـــسِيْمُ الفَجْـــرِ غَـــيَّرَ طَبْعَـــهُ

سَـــمُوْماً غَـــدَا بَعْـــدَ الطَـــرَاوَةِ وَالـــبَرْدِ

فَـــلا الْلَـــيْلُ لَيْـــلٌ مِثْلَمَـــا كَـــانَ رَاحَـــةً

وَلا الـصُبْحُ مَوْعُـوْدٌ بِمُـسْتَوْجِبِ الـحَمْدِ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

تَـــنُوْحُ حَمَـــامُ الـــدَوْحِ مِثـــلِيْ صَـــبَابَةً
وَمَـــا حُـزْنـــهَا حُـزْنِـــيْ وَلا وَجْـــدُهَا وَجْـــدِيْ
فَقَـــدْ فَقَـــدَتْ إِلْفـــاً يُعَـــاضُ بِمِثـــلِهِ
وَمَـــنْ يَفْتَقِـــدْ أُمّـــاً فَـــيَا بُـــؤْسَ لِلفَقْـــدِ
تَوَقَّـــدُ فِيْ جَنْـــبَيْهِ نـــارُ الْتِيَـــاعِهِ
يَكَـــادُ لَظَـــاهَا يُـــشْعِلُ القَلْـــبَ بِـالوَقْـــدِ
وَيَجْثِـــمُ كَـــابُوْسٌ مِـــنَ الغَـــمِّ وَالأَسَـــى
عَلَيْـــهِ فَيَنْـــهَدُّ بِـــهِ أَيَّـــمَا هَـــدِّ
وَلِلْحُـــزْنِ آيَـــاتٌ تَـــدُلُّ عَـــلَى الفَتَـــى
عِيَانـــاً وَمَـــا تَخْفَـــى عَـــلَى الأَعْـــيُنِ الرُمْـــدِ
أَنِيـــنٌ وَزَفْـــرَاتٌ وَغَـــمٌّ وَحَـــسْرَةٌ
وَكُـــلٌّ عَـــلَى كُـــلٍّ مِـــنَ الـــبُؤْسِ يَـــسْتَعْدِيْ
هِـــيَ الأُمُّ نِـــبْرَاسُ الـــحَيَاةِ وَضَـــوْؤُهَا
إِذَا ارْتَحَـــلَتْ يَأْتِـــي الظَـــلامُ عَـــلَى الوَعْـــدِ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

إذَا قُلْتُ : (يَا أُمِّيْ) بَكَتْ كُلُّ أَحْرُفِيْ

عَلَى فَقْدِ مَنْ كَانَتْ يُؤَرِّقُهَا فَقْدِيْ

وَمَنْ بَانَ قَدْ يَأتِيْ وَلَوْ غَابَ حِقْبَةً

وَغَيْبَةُ مَنْ حَلَّ القُبُوْرَ بِلا عَوْدِ

أُحِبُّكِ يَا أُمِّيْ وَسَيْلُ مَصَائِبِيْ

بِمَوْتِكِ قَدْ أَرْبَى عَلَى هَامَةِ السَّدِّ

وَحَسْبِيْ مُصَاباً أنَّ فَقْدَكِ تَارِكِيْ

أُقَضِّيْ خَرِيْفَ العُمْرِ مُسْتَوْحِشاً

أُكَابِدُ -مَكْسُوْرَ الجَنَاحَيْنِ - غُرْبَةً

وَإنْ كَانَ لِيْ فِي كُلِّ وَادٍ بَنُوْ سَعْدِ

وَمَنْ رَامَ عَيْشاً بَعْدَ مَوْتِ صَفِيِّهِ

فَعَيْشٌ كَلا عَيْشٍ وَإنْ جَلَّ فِي العَدِّ

أُحِبُّكِ يَا أُمِّيْ وَمَنْ ذَا يَلُوْمُنِيْ

لِحُزْنِيْ عَلَيْكِ إذْ سَبَقْتِ إلى اللَحْدِ

رَحَلْتِ بِأَفْرَاحِيْ وَأُنْسِيْ وَسَلْوَتِيْ
وَأَمْنِيْ وَآمَالِيْ وَحَفْزِيْ لَدَى جَهْدِيْ
فَأَصْبَحْتُ وَالإِمْسَاءُ مِثْلُ صَبَاحِهِ
كَلَفْظٍ بِلا مَعْنًى وَسَعْيٍ بِلا قَصْدِ
وَعَيْنِيْ عَلَى مَا فَاتَ تَذْرِيْ دُمُوْعَهَا
وَقَلْبِيْ إِلَى الآتِيْ يَسِيْرُ بِلا رِفْدِ
فَحُزْنِيْ عَلَيْكِ الدَهْرَ لَيْسَ بِبَارِحٍ
بِغَيْرِ جِوَارِيْ مَعْكِ فِيْ جَنَّةِ الخُلْدِ
سَلامٌ عَلَى الدُنْيَا تَنَاثَرَ عِقْدُهَا
وَقَدْ كُنْتِ يَا أُمَّاهُ وَاسِطَةَ العِقْدِ
سَلامٌ عَلَيْهَا عَدْلُهَا فِيْ بَلائِهَا
وَعَلْقَمُهَا مَا انْفَكَّ حَتَّى عَنِ الشَهْدِ
بِهَا المَوْتُ كَالمِنْشَارِ غَادٍ وَرَائِحٌ
وَمَنْ يَأْمَنِ الدُنْيَا يَجِدْ أَبْلَغَ الرَدِّ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

إذَا صَـــاحَ طِفـــلٌ مُـــسْتَهِلاً حَيَاتـــهُ
بَكَـى غـَيْرُهُ مَيْتـاً أَعَـزَّ مِـنَ الوِلْـدِ
وَإنْ صَـــفَّقَتْ دَارٌ سُرُوْراً تـــكَدَّرَتْ
دِيَـارٌ بِهَـا فَالـضِدُّ يَحْيَـا مَـعَ الـضِدِّ
سَـــلامٌ عَـــلَى الدُنْيَـــا سَـــلامَ مُـــوَدِّعٍ
يَـرَى أنَّ بَطـْنَ الأرْضِ آنَـسُ لِلعَبْـدِ
فَـمَنْ حَـامَ حَـوْلَ البِئْـرِ لا بُـدَّ وَاقِـعٌ
وَبِئْـرُ الـمَنَايَا فَـاغِرٌ فَـاهُ لِلْـوِرْدِ
لَقَـدْ آنَ تَرْحَالِـيْ وَغَـيْرِيَ لاحِقِـيْ
فَلَمْ تُبْقِ مَنْ قَـبْلِيْ لِتُبْقِـيَ مَنْ بَعْدِيْ
وَلَـيْسَ مَـعَ الأقْـدَارِ لِلْمَـرْءِ مَـهْرَبٌ
وَلا مَسْلَكٌ يُنْجِـيْ وَلا حِيْلَـةٌ تُجْدِيْ
سَأَصْبِـرُ حَتَّـى يُـوْقِنَ الـصَبْرُ أَنَّنِـيْ
صَبُوْرٌ وَلَوْ أَوْدَى بِـيَ الـصَبْرُ لِلَّحْدِ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

فَـصَبْرٌ جَمِـيْلٌ إنَّ فِـي الـصَبْرِ رَاحَـةً

وَأجْراً وَإنَّ الصَبْرَ هَـدْيُ أُولِي الرُشْـدِ

رِسَالَةٌ إلى حَبِيْبَتِيْ

حَبِـيْبَتِـيْ:

لَمْ يَزَلْ مَكَانُكِ فِيْ قَلْبِـيْ خَالِياً لا يَسْتَحِقُّهُ غَيْرُكِ.

وَلا تَحْلُمُ بِـمُزَاحَمَتِكِ عَلَيْهِ أُخْرَى.

وَلَمْ تَزَلْ مَوَدَّتُكِ فِيْ قَلْبِـيْ تَنْمُوْ وَتَكْبُرُ.

وَلا زِلْتُ أُمَنِّيْ النَفْسَ بِـانْتِهَاءِ هَجْرِكِ

وَسَقَيْتِـنِيْ مِـنْ مَـاءِ هَجْـرِكِ مَـا لَـهُ

أَصْـبَحْتُ أَشْرَقُ بِـالزُلالِ البَـارِدِ[136]

فَقُوْلِـيْ بِـرَبِّكِ: هَلْ تَرْجِعِيْنْ؟

حَبِـيْبَتِـيْ:

كُنْتُ آنَفُ مِمَّنْ يَهْجُرُنِيْ يَوْماً أَنْ يُقْبِلَ عَلَيْهِ قَلْبِـيْ مَرَّةً أُخْرَى

فَأَنْصَرِفُ عَنْهُ وَشِعَارِيْ:

إِذَا انْـصَرَفَتْ نَفْـسِيْ عَـنِ الـشَيْءِ لَمْ تَكِـدْ

عَلَيْـهِ بِـوَجْهٍ آخِـرَ الـدَهْرِ تُقْبِـلُ[137]

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

لَكِنْ مَا بَالُكِ تَهْجُرِيْنَنِيْ سَنَوَاتٍ، وَقَلْبِـيْ مَعَ ذاكَ يَـزْدَادُ بِـكِ تَعَلُّقاً وَلَكِ حُبّاً ؟ ألا تَشْعُرِيْنَ بِـحُبِّي الدَفِيْنْ ؟

حَبِـيْبَتِـيْ :

حِـيْنَمَا حُرِمَتْ عَيْنِـيْ مِنْ رُؤْيَاكِ

وَأُذُنِـيْ مِـنْ سَـمَـاعِ نَـجْـوَاكِ

وَقَلْبِـيْ مِـنَ التَـلَـذُّذِ بِـلُـقْيَاكِ

لَـجَـأْتُ إلى الاسْتِمْتَاعِ بِـاسْتِرْجَاعِ الصُوَرِ البَهِـيَّةِ

لِـتِلْكَ الأَيَّـامِ وَاللَيَالِـي العَامِرَةِ بِـأَجْمَلِ الذِكْرَيَاتِ النَدِيَّةِ.

وَأَحْمِلُ كَنْزاً مِـنَ الـذِكْرَيَاتِ لِتِـلْكَ العُهُـوْدِ التِـيْ لا تَعُـوْدْ[138]

أَيُـغْنِي الـخَيَالُ مَكَانَ اليَقِـيْنْ؟

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

حَبِـيْبَتِـيْ

لَقَدِ اعْتَادَ العَاذِلُوْنَ أنْ يَفْرَحُوْا بِـكُلِّ جَفْوَةٍ تَكُوْنَ بَيْنَ الأَحْبَابِ، لَكِنَّ هَجْرَكِ الطَوِيْلَ لِيْ أَثَّرَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فِـيْ حَيَاتِـيْ حَتَّى غَرَسَ الرَحْمَةَ لِـيْ فِيْ قُلُوْبِ حُسَّادِيْ :

وَحَـــسْبُكَ مِـــنْ حَـــادِثٍ بِـــامْرِئٍ
تَـــرَى حَاسِدِيـــهِ لَـــهُ رَاحِمِيْـــنَا(139)

وَلا أَبْـتَغِـيْ رَحْمَةَ الـحَاسِدِيْنْ.

حَبِـيْبَتِـيْ :

السُهْدُ أَرَّقَنِـيْ، وَأَبْلَـى مُهْجَتِـيْ.

وَالـحُزْنُ أَغْرَقَ بِـالـمَدَامِعِ مُقْلَتِـيْ.

وَالـهَجْرُ أَفْنَى مَا بَقَى مِنْ بَهْجَتِـيْ.

إنْ كَانَ يُرْضِـيْكِ شَقَائِـيْ صَارَ حَقّاً سَلْوَتِـيْ.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

لَكِنَّنِيْ وَعُقُوْدُ عُمْرِيْ كُلُّهَا هِيَ حُجَّتِيْ.

مَا كُنْتُ أَعْهَدُ فِيْكِ إلا مَا يُبَدِّدُ وَحْشَتِيْ.

مَا كُنْتُ أَعْرِفُ مِنْكِ إلا مَا يُكَفْكِفُ دَمْعَتِيْ.

أَتُرَاكِ غَيَّرَكِ الزَمَانُ كَحَالِ كُلِّ العَالَمِيْنْ؟

حَبِيْبَتِيْ :

عُوْدِيْ... وَإِنْ شِئْتِ فَلا...

كُوْنِيْ كَمَا يُمْلِيْ عَلَيْكِ فُؤَادُكِ الذِيْ عَهْدِيْ بِهِ أَنْقَى النَقَاءْ.

عُوْدِيْ... وَإِنْ شِئْتِ فَلا...

لَكِنْ ثِقِيْ أَنِّيْ أَرَاكِ كُلَّ صُبْحٍ وَمَسَاءْ.

عُوْدِيْ... وَإِنْ شِئْتِ فَلا...

فَخَيَالُكِ المَحْبُوْبُ أَصْبَحَ بُؤْبُؤاً لِلْعَيْنِ وَهْوَ لَهَا ضِيَاءْ.

عُوْدِيْ... وَإِنْ شِئْتِ فَلا...

فَالعُمْرُ آذَنَ بِالرَحِيْلِ وَعِنْدَ ذاكَ يَكُوْنُ فِيْهِ لَنَا لِقَاءْ.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

عُوْدِيْ... وَإِنْ شِئْتِ فَلا...

فَالقَبْرَ يَا أُمَّاهُ سِرْتِ إِلَيْهِ كَمَا يَسِيْرُ كُلُّ الأَتْقِيَاءْ.

عُوْدِيْ... وَإِنْ شِئْتِ فَلا...

مَا عَادَ مَيْتٌ قَبْلِ مَوْتِ (أُمَيْمَتِيْ) رَمْزِ الوَفَاءْ

لَكِنَّ رَحْمَةَ رَبِّنَا أَمَلٌ لِكُلِّ الآمِلِيْنْ.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

أُمِّيْ

لعبد العليم اليوسفيّ

تَغْمُرِيْنَ الأُفْقَ ظِلاً وَنَدَى
فِيْ مَتَاهَاتِيْ إِذَا اللَيْلُ بَدَا
تَنْثُرِيْنَ النُوْرَ فِيْ دَرْبِيْ إِذَا
سِرْتُ كَالأَعْشَى عَلَى غَيْرِ هُدَى
يَتَعَرَّى اللَيْلُ مِنْ ظُلْمَتِهِ
حِيْنَ تَغْشَيْنَ سَمَاهُ الأَسْوَدَا
أَتَغَنَّاكِ مَعَ الصَحْوِ وَلا
تَبْرَحُ الأَحْلامُ مِنْكِ مَوْرِدَا
اِسْمُكِ النَاعِمُ إِذْ أَهْمِسُهُ
تُصْبِحُ النَايَاتُ لِلْهَمْسِ صَدَى
أَلِفٌ يَتْبَعُهُ مِيْمٌ فَمَا
أَجْمَلَ الحَرْفَيْنِ حِيْنَ اتَّحَدَا

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

لـــــَمْ أَزَلْ أَعْـــشَقُ حِـــضْناً ضَمَّنِـــيْ

لَيْـــتَ مَـــاضِي الأَمْـــسِ يَـــأْتِينِيْ غـــدَا

يَـــا لَحُبِّـــيْ لَـــكِ مَـــنْ يُحْـــصِيْهِ مَـــنْ ؟

هَـــلْ رِمَـــالُ الأَرْضِ تُحْـــصَى عَـــدَدَا

فَلَكـــــَمْ أَشـــــْدُوْكِ (أُمِّـــــيْ) وَلـــــكَمْ

طَـــرِبَ الـــكَوْنُ لِـــشَدْوِيْ فَـــشَدَا

إِنَّ حُبِّـــــيْ لَـــــكِ حُـــــبٌّ خـــــَالِدٌ

يَتـــــَعَدَّى الـــــمَوْتَ... يَجْتـــــَازُ الـــــمَدَى

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

إلى أُمِّي(140)

للشاعر عبد العزيز جويدة

أنَا الكَلِمَاتُ تَحْتَرِقُ...

عَلَى شَفَتِيْ

وَأَنْفَاسِيْ تَهُبُّ كَمِثْلِ نِيْرَانٍ عَلَى رِئَتِيْ

أنَا قُلْتُ: مَسَاءُ الخَيْرِ يَا أُمِّيْ

وَمَا رَدَّتْ...

تُرَاهَا قَدْ نَسَتْ لُغَتِيْ؟

فَتَحْتُ البَابْ

وَأَغْلَقْتُ.. وَرَائِي البَابْ

وَنَادَتْنِيْ لَيَالِي الأَمْسِ وَالأَحْبَابْ

وَحَيَّيْتُ الذِيْ يَجْلِسْ..

جِوَارِيْ دَائِمًا أَبَداً

مَسَاءُ الخَيْرِ يَا حُزْنِيْ

فَرَدَّ الـحُزْنُ بـالِتِرْحَابْ.

تَذَكَّرْتُ...

هُنَا وَجْهَكْ

وَوَجْهُكِ طَلَّةٌ مِنْ نُوْرْ

وَقَلْباً يُشْبِـهُ البَلُّوْرْ

وَتَسْبِـيْحاً وَتَكْبِـيْراً

وَعِطْرَ بَخُوْرْ.

تَذَكَّرْتُ...

هُنَا التَنُّوْرْ.

وَخُبْزًا جَافْ.

وَظِلَّ شُجَيْرَةِ الصَفْصَافْ

وَضَمَّةَ صَدْرِكِ الـحَانِـيْ

عَلَى طِفْلٍ رَضِـيْعٍ خَافْ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

تَذَكَّرْتُ..

دُعَاءَكِ فِيْ صَلاةِ الفَجْرْ

تَذَكَّرْتُ الكَلامَ الـحُلْوَ فِيْ يَوْمٍ

تَذَكَّرْتُ الكَلامَ الـمُرْ

وَيَوْمَ سَأَلْتِنِيْ مَرَّةْ

عَنِ الـمَوْتِ

وَأَوَّلِ لَيْلَةٍ فِي القَبْرْ

وَعَنْ حَالِ السِنِيْنَ هُنَاكْ

وَكَيْفَ تَـمُرْ؟

وَمَرَّ العُمْرْ

وَصَارَ الـمُرُّ فِيْ حَلْقِيْ

هُنَاكَ أَمَرْ

وَظَلَّ السِرُّ مَطْوِيّاً

وَخَلْفَ السِرْ

أَنَا مَا زِلْتُ يَا أُمِّيْ عَلَى قَبْرِكْ

هُنَا طِفْلاً..

يَبِــيْعُ الصَبْرْ

أُنَادِيْكِ

وَأَنْتَظِرُ.. يَجِــيْءُ الرَدْ

وَأَصْبَحَ بَيْنَنَا سَدٌّ

وَمَاذا خَلْفَ هَذَا السَدْ

بَدَأْنَا العَدّ

أَنَا طِفْلٌ حَدِيْثُ العَهْدِ بِــاليُتْمِ

وَلا أَدْرِيْ وَمَاذا بَعْدْ؟

فَمَنْ بَعْدَكْ..

عَلَيَّ يَرُدْ؟

وَمَنْ بَعْدَكْ..

إذا قَبَّلْتُ كَفَّيْهِ..

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

أَذُوْقُ الشَهْدْ؟

وَمَنْ يَمْسَحْ..

عَلَى رَأسِيْ إذا آسَى؟

وَمَنْ بَعْدَكْ..

يُقَبِّلُنِيْ لِكَيْ أَنْسَى؟

وَمَنْ في الصُبْحِ أَشْتَمُّ. .

بِـأَنْفَاسِهْ..

عَبِـيْرَ الوَرْدْ؟

دَخَلْتُ الآنَ حُجْرَتَكِ

وَجَدْتُ النُوْرَ قَدْ غَادَرْ

وَطِـيْبَكِ مِنْ هُنَا سَافَرْ

سَألْتُ النُوْرَ عَنْ شَيْءٍ هُنَا تَرَكَهْ

لِـمَاذا البَيْتُ مَا عَادَ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

فَلا صَوْتٌ وَلا حَرَكَةْ

وَلا خَيْرٌ وَلا بَرَكَةْ؟

هُنَا مَا زَالَ مَقْعَدُكِ

وَصَوْتٌ مِنْ كَلامِ الأَمْسْ

جَمِيْعًا كُنَّا نَنْتَظِرُكْ

فَهُلِّيْ مِثْلَمَا أَنْتِ

فَقَدْ كُنْتِ..

هُنَا بِـالأَمْسْ

وَبَيْنَ اليَوْمِ وَالأَمْسِ

تَغَيَّرْنَا.

فَلا شَكْلٌ وَلا لَوْنٌ

وَلا طَعْمٌ وَلا مَعْنَى

وَلا أَنْتِ..

هُنَا مَعَنَا

لأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي العُمْرِ يَا أُمِّيْ

نَذُوْقُ اليُتْمَ أَجْمَعَنَا

نُغَمِّسُ خُبْزَنَا اليَابِـسْ..

بأَدْمُعِنَا

هُنَا بَخَّاخةُ الرَبْوِ وَمِسْبَحَتُكْ

وَطَرْحَتُكِ وَسِجَّادَةْ

وَمِذْيَاعٌ صَغِيْرٌ

يَقْرَأُ القُرْآنَ كَالعَادَةْ

أَتَى العِيْدُ وَلَمْ يَطْرُقْ عَلَى بَابِيْ هُنَا أَحَدٌ

تَعَجَّبْتُ. .

تُرَى قَدْ جَاءَ هَذَا العَامُ يَا أُمِّيْ

بِـلا أَعْيَادْ؟

وَلَمْ أَسْمَعْ هُنَا صَوْتَكْ. .

يُنَادِيْنِـيْ

فَنَادَيْتُ... وَنَادَيْتُ...

وَخَوْفٌ دَاخِلِيْ يَزْدَادْ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

فَأَيْـنَ فُطُوْرُنَا أَيْـنَ

وَأَيْنَ جَمِيْعُ مَنْ فِي البَيْتِ

يَلْتَفُّوْنَ مِنْ حَوْلِكْ؟

هُنَا كُنَّا عَلَى مِـيْعَادْ

هُنَا فِي البَهْوِ نَنْتَظِرُكْ

وَهَذَا الـمَقْعَدُ الـخَالِيْ

أُحَدِّقُ فِـيْهِ..

وَيَقْتُلُنِيْ سُؤَالٌ دَارَ فِيْ بَالِيْ

طَرَقْتُ البَابَ لَمْ أَسْمَعْ..

هُنَا صَوْتَكْ

وَنَادَيْتُ: أَيَا أُمِّيْ.. أيَا أُمِّيْ

فَتَحْتُ البَابَ فِيْ صَمْتٍ

سَرِيْرُكِ هَا هُنَا خَـالِـيْ

وِسَادَتُكِ وَجِـلْبَابُكْ وَمِسْبَحَتُكْ

وَبَسْمَتُكِ.. دُعَابَتُكْ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَمَصْرُوْفٌ لأَطْفَالِـيْ

وَأَدْوِيَةٌ مُبَعْثَرَةٌ

سُؤَالُكِ دَائِماً عَنِّيْ

وَعَنْ حَالِـيْ

وَرُقْيَتُكِ وَدَعْوَتُكِ

وَنَوْمِيْ فَوْقَ رُكْبَتِكِ

وَنَظْرَتُكِ وَضَمَّتُكِ وَقُبْلَتُكِ

وَحِضْنٌ فِيْهِ آمَالِـيْ

بِـأَنْ أَرْتَاحَ مِنْ تَعَبِـيْ وَتِرْحَالِيْ

تَسَاقَطْتُ... عَلَى الأَرْضِ

لأَنَّ العَجْزَ قَدْ دَبَّ . .

بِـأَوْصَالِـيْ.

أُحِسُّكِ دَائِماً قُرْبِـــيْ تُنَادِيْنِـــيْ

بِـكُلِّ مَسَاءْ

فَأَجْرِيْ نَحْوَ غُرفَتِكِ

بِـكُوْبِ المَاءْ

وَقُرْصِ دَوَاءْ

فَلا أَجِـدُكْ. ..

أَضُمُّكِ دَاخِلِـيْ وَأَذُوْبْ

فَلا يَبْقَى هُنَا مِنِّيْ وَلا مِنْكِ

سِوَى أنـَّا

فَنَاءٌ ذَائِبٌ بِـفَنَاءْ

وَقَدْ أَعْطَيْتِنِيْ رُوْحًا

فَحَلَّقْتُ. .

أَنَا مَعَكِ

بِـكُلِّ سَمَاءْ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

فَيَا أُمِّي التِي اخْتَصَرَتْ بِـدَاخِلِنَا..

مَوَاسِمَنَا

فَصِرْنَا وَالسِنِيْنَ بُكَاءْ

مُسَافِرَةٌ إلى أيْنَ حَبِـيْبَتَنَا

مُسَافِرَةٌ بِـلا أَشْيَاءْ

حَقِـيْبَتُكِ التِيْ كَانَتْ

تُسَافِرُ دَائِماً مَعَكِ

نَرَاهَا لا تُطِـيْقُ بَقَاءْ

ضَحِكْتِ عَلَيْنَا واللهِ

وَسَافَرْتِ عَلَى اسْتِحْيَاءْ

بِـغَيْرِ وَدَاعْ

وَسَافَرْتِ.. لأَبْعَدِ نُقْطَةٍ فِي الكَوْنِ

سَافَرْتِ بِـلا أَشْيَاءْ

سِوَى زَادٍ مِنَ التَقْوَى

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَإِيْمَانٍ كَنَبْعِ الـمَاءْ
تُرَاكِ الآنَ يَا أُمِّيْ
بِـأَيِّ سَمَاءْ؟

وَتَعْبِـسُ حَوْلَنَا الأَشْيَاءُ مُعْلِنَةً
قُدُوْمَ الـمَوْتْ
قِطَارٌ سَوْفَ يَحْمِلُنَا لِـبُلْدَانٍ
وَنَجْهَلُهَا
نُسَمِّيْهَا بِـلادَ الصَمْتْ
لِدَارٍ غَيْرِ تِلْكَ الدَارِ يَا أُمِّيْ
وَبَيْتٍ غَيْرِ هَذَا البَيْتْ
أُنَادِيْكِ
وَأَصْرُخُ دَائِماً وَحْدِيْ
بِـأَعْلَى صَوْتْ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

رَجَوْتُكِ أنْ تُجِيْبِيْنِيْ
وَأَنْ تَبْقَيْ هُنَا مَعَنَا
لِبَعْضِ الوَقْتْ.

أنَا أَمْسَكْتُ بِالهَاتِفْ
لأَطْلُبَ نَفْسَ أَرْقَامِكْ
فَكَمْ يَأْتِيْ جَمِيْلاً رَائِعاً رَدُّكْ
إذا كَانَتْ مُهَاتَفَتِيْ
مُفَاجَأَةً
وَمَا دَارَتْ بِحُسْبَانِكْ
بِكِلْمَاتٍ تُزَلْزِلُنِيْ..
تَرُدِّيْنَ
وَتَخْتَصِرِيْنَ قَامُوْساً
مِنَ الكَلِمَاتِ فِيْ ذَلِكْ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

أُحِسُّ بِـقَلْبِـكِ الـمَلْهُوْفِ يَنْصَهِرُ
عَطَاءً مُرْهِقاً جِـدّاً
يُغَالِبُ مَا بِـإِمْكَانِكْ
فَأَيُّ حِكَايَةٍ أَنْتِ
وَكُلُّ مَنَابِـعِ الـحُبِّ
تَصُبُّ الـحُبَّ فِيْ ذَاتِكْ
أَنَا مِنْ جَمِّ توْقِـيْرِكْ وَإِجْلالِكْ
فَلَوْ كَانَ . .
لِغَيْرِ الله مَسْمُوْحٌ بِـأَنْ أَسْجُدْ
لَعِشْتُ العُمْرَ يَا أُمِّيْ
لأَسْجُدَ عِنْدَ أَعْتَابِـكْ
أَنَا مَا زِلْتُ وَالـهَـاتِفْ
وَعِشْرُوْنَ مُـحَاوَلَةً
فَـرُدِّيْ مِـثْـلَـمَـا كُنْتِ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَصُبِّيْ دَاخِلَ الشِرْيَانِ تَـحْـنَانَكْ

فَهَذَا اليَوْمُ عِـيْدُ النَاسِ يَا أُمِّيْ

وَأُغْنِـيَةٌ أَنَا قَدْ عِشْتُ أَعْشَقُهَا

وَأَنْتِ السِرُّ فِيْ ذَلِكْ

أَتَى العِـيْدُ

وَهَاتِفُكِ يَرِنُّ وَلا تُجِـيْبِـيْنَ

هَدَايَاكِ أَتَتْ مِنْ كُلِّ أَحْبَابِـكْ

وَلَكِنْ لَمْ نَكُنْ نَدْرِيْ

بِـأَنَّكِ دُوْنَ أَنْ نَدْرِيْ

هُنَا غَيَّرْتِ عُنْوَانَكْ.

أَنَا النَدْمَانُ مِنْ رَأْسِيْ إِلى قَدَمِـيْ

أَنَا نَدَمِـيْ

عَلَى أَنِّـيْ تَرَكْتُكِ لَـحْظَةً فِي العُمْرِ

مَا كُنْتِ مَعِيْ فِـيْهَا

فَعُوْدِيْ لِـيْ وَأُقْسِمُ لَكْ

بأنِّيْ كُلَّ أَيَّـامِـيْ سَأَقْضِـيْهَا

لأَجْلِسَ عِنْدَ أَقْدَامِكْ

أُقَـبِّلُهَا وَأَحْمِلُهَا عَلَى رَأْسِـيْ

أُهَدْهِدُهَا أُغَطِّيْهَا

فَقَدْ خَدَعَتْنِـيْ أيَّـامِيْ

وَرِحْلَةُ عُمْرِنَا مَرَّتْ

وَلَمْ أَعْرِفْ

تَوَاعَدْنَا عَلَى شَيْءٍ

أنَـا وَاللهِ لَمْ أُخْـلِفْ

وَلَكِنْ أَخْلَفَ الـمَوْتُ. .

الذِيْ فِيْ لَـحْظَةٍ يَخْطَفْ

تَـخَيَّلْتُ..

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

بِـأنَّ العُمْرَ مُمْتَدٌّ

وَأنَّ هُنَاكَ مُتَّسَعاً مِنَ الأَيَّـامْ

وَكَمْ كَانَتْ لَدَيْنَا هَاهُنَا أَحْلامْ

رَأيْتُ الـمَوْتَ في عَيْنَيْكِ فِيْ يَوْمٍ

وَلَكِنْ خِلْتُهَا أَوْهَامْ

حَكَيْتِ لَنَا عَنِ الـمَاضِـيْ

تَرَكْتِ بِـدَاخِلِـيْ جُرْحاً

كَأَلْفِ عَلامَةِ اسْتِفْهَامْ

وَمَرَّ الوَقْتُ لَمْ نُكْمِلْ

وَقَدْ قُلْنَا

غَدًا بِـإِذْنِ الله نَسْتَكْمِلْ

وَجَاءَ الغَدُ يَا أُمِّـيْ

وَهَا أَنَـذَا وَحِـيْداً ضَائِعاً مُهْمَلْ

فَبَعْدَكِ يَا أَحَبَّ النَاسْ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

بــهَذَا القَلْبِ مِنْ بَعْدِكْ
أنــا مَاذَا بــهِ أَفْعَلْ؟

جَمِيْلٌ كُلُّ شَيْءٍ فِيْكِ يَا أُمِّيْ
جَمِيْلٌ كُلُّ شَيْءٍ كَانْ
بــحَقٍّ كُنْتِ رَائِعَةً وَيَافِعَةً
وَيَانِعَةً كَمَا البُسْتَانْ
رَأَيْــتُكِ بَسْمَةً تَــمْتَدُّ شَلالاً
وَتَسْكُنُ مَدْخَلَ الشِرْيَانْ
حَنَانُكِ عَالَمٌ يَــمْتَدُّ دَاخِلَنَا بــلا آخِرْ
بُحُوْرٌ مَا لَــهَــا شُطْآنْ
وَجُوْدُكِ وَحْدَهُ كَافٍ
لِيَبْعَثَ دَاخِلِيْ اطْمِئْنَانْ
فَفِيْ كَفَّيْكِ يَا أُمِّيْ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

شُطُوْطُ أَمَانْ

أُحِسُّكِ رَغْمَ مَا فِيْكِ

كَأَنَّكِ قَدْ فَرَشْتِ الأَرْضَ

مِنْ تَحْتِ البَشَرْ..

أَحْضَانْ

صَلاحٌ مَا لَهُ آخِرْ

وَأَنْتِ كَرَوْضَةٍ كُبْرَى مِنَ الإِحْسَانْ

تَصَالَحْتِ مَعَ النَاسِ

فَمَا أَغْضَبْتِ فِيْ يَوْمٍ هُنَا إِنْسَانْ

وَمَا يَوْماً طَلَبْتِ مَتَاعَ دُنْيَانَا

فَمَا شَيْءٌ عَلَى قَلْبِكْ..

لَهُ سُلْطَانْ

تَعَلَّقْتِ بِحَبْلِ اللهِ فِيْ صَبْرٍ

وَكُنْتِ بِكُلِّ نَائِبَةٍ لَكِ البُرْهَانْ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

يَجِـيْءُ الفَجْرُ يَسْأَلُـنِـيْ
يَدُقُّ البَابَ فِيْ خَجَلٍ
كَطِفْلٍ تَائِهٍ حَيْرَانْ
وَيَجْلِسُ يَنْزَوِيْ وَحْدَهْ
وَيَسْأَلُ عَنْكِ يَا أُمِّيْ
فَصَوْتُ مُؤَذِّنِ الفَجْرِ
هُنَا قَدْ حَانْ
فَلا صَوْتٌ لِـهَذَا البَيْتِ مِنْ بَعْدِكْ
فَأَيْـنَ الآنَ هَمْهَمَتُكْ
بِـتَسْبِـيْحٍ وَتَهْلِـيْلٍ
وَتَرْتِـيْلٍ مِنَ القُرْآنْ
فَقَدْنَاكِ.. عَلَى غِرَّةْ
وَسَافَرْتِ..
وَلا نَدْرِيْ لأَيِّ مَكَانْ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

لأوَّلِ مَرَّةٍ في العُمْرِ تَغْتَرِبِـيْنَ يَا أُمِّـيْ

وَسَافَرْتِ. .

إلى الأَبَدِ..

بلا اسْتِئْذَانْ...

تخريج الأبيات الشعريّة

◉ يكثرُ السؤالُ عن قائلِ هَذِهِ الحكمةِ التي عَنْوَنْتُ بها الكتابَ:

(يظلُّ الرجلُ طفلاً حَتَّى تموتَ أمّه، فإذا ماتتْ شاخَ فجأةً).

وللجواب عن ذلك السؤال أقولُ:

أوّل مَا قرأتُ هَذِهِ العبارة كان في كتاب (متعة الحديث: ص 41) لعبدالله بن محمد الداوود، ولم يعزها المؤلف لأحد.

وَقَدْ وجدتها منسوبة لمحمد عبدالوهاب في (صحيفة الجزيرة السعوديّة: يوم الجمعة 20/ 5/ 1419هـ الموافق 11/ 9/ 1998م، ثمّ في صحيفة الجزيرة نفسها "العدد 10172" الصادر في يوم الجمعة 4/ 5/ 1421هـ الموافق 4/ 8/ 2000م نُسِبَتْ إلى كمالة عثمان حسين). وهناك مَنْ قالَ لي : إنّها حكمةٌ صينيّةٌ، لكنّه لم يأتِ بدليلٍ على ذلك.

(1) عجز بيت لسعيد بن حميد، وصدره:

العُسْرُ أُكْرِمُهُ لِيُسْرٍ بَعْدَهُ

(2) البيتان لأبي العتاهية.

(3) البيتان لابن الرومي بتصرّف.

(4) البيتان للخليل بن أحمد الفراهيديّ.

(5) البيت لناصيف اليازجي.

(6) البيت لأحمد الرفاعي.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

(7) شطر بيت في كتاب (الحيوان) للجاحظ، ولم أعرف تكملته.

(8) الأبيات للشاعر محمد إقبال رحمه الله ترجمها شعراً للغة العربية الشيخ الصاوي علي شعلان .

(9) من عجز بيت لأبي تمام :

وَأَشجَيتُ أَيّامي بِصَبرٍ جَلَونَ لي عَواقِبَهُ وَالصَبرُ مِثلُ اِسمِهِ صَبرُ

(10) بيتٌ مشهورٌ لم أعرف قائله.

(11) عجز بيت لأبي الشيص الخزاعيّ، صدره:

يُصَبّرني قَرمٌ بُراءٌ مِنَ الهَوى

(12) البيتان للدكتور سلمان العودة.

(13) أبيات من ديوان (ريشة من جناح الذلّ) لحسن بن محمد الزهرانيّ في رثاء أمّه رحمها الله.

(14) البيت لابن الروميّ.

(15) البيت لأبي العتاهية.

(16) البيت لقاسم الكستيّ.

(17) البيتان لأبي العتاهية، وَقَدْ أَجَابَهُ الشاعر صالح بن عبدالقدوس:

الدارُ جنّةُ عَدْنٍ إنْ عَمِلْتَ بِما يُرْضِي الإلَهَ وإنْ فَرَّطْتَ فالنارُ
هُمَا مَجلانِ مَا لِلْنَاسِ غَيْرُهُمَا فَانْظُرْ لِنَفْسِكَ ماذا أنتَ مُخْتَارُ

(18) البيت لقطريّ بن الفجاءة.

(19) البيت لإبراهيم بن هرمة.

(20) عجز بيت لأبي العتاهية، وصدره:

مـــا كـــلّ مَـــا يتمنّـــى المـــرءُ يدركـــه

(21) البيتان لابن المعتزّ.

(22) البيت لابن الجيّاب الغرناطيّ.

(23) الأبيات لحسن بن علي بن جابر الهبل اليمنيّ.

(24) البيت لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

(25) البيت لمحمد بن عبدالله بن عثيمين.

(26) البيتان لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

(27) البيت لابن شهيد الأندلسيّ.

(28) البيت لأبي الشيص الخزاعيّ، وقافيته عنده: (حاجة أو تطرّبُ).

(29) البيت للخطيب البغداديّ.

(30) الأبيات لابن نباتة السعديّ.

(31) البيتان بلا نسبة في (خلاصة الأثر في أعيان القرن الثاني عشر).

(32) البيت لمحمود سامي الباروديّ.

(33) الأبيات لأبي يعقوب إسحاق بن حسّان الخريميّ.

(34) البيت لصالح بن عبدالقدوس.

(35) البيت للموصليّ.

(36) الأبيات للمؤلف غفر الله له ولوالديه.

(37) البيت لعديّ بن الرعلاء الغسّانيّ.

(38) البيت لغلام سمعه الأصمعيّ منه، كما في (زهر الأكم في الأمثال والحكم).

(39) البيت لأبي الشيص الخزاعيّ.

(40) البيتان لفتح الله حوّاص.

(41) الأبيات لأبي العتاهية.

(42) الأبيات - بتصرّف - لعمر بهاء الدين الأميريّ يرثي أمّه، رحمهما الله جميعاً.

(43) هو ابن أخي / ريّانُ بنُ خالد العايد، المولود في الرس بمنطقة القصيم يوم 3/ 8/ 1420هـ

(44) مطلع قصيدة عمر بهاء الدين الأميريّ في رثاء أمّه، رحمهما الله.

(45) البيت لسعيد بن محمّد الغشريّ.

(46) البيت لراشد الدوسريّ.

(47) البيت للأمير نجم الدولة أحمد بن أبي الفتوح.

(48) الأبيات لمحمد بن عبدالمطلب بن واصل.

(49) الأبيات للمؤلف غفر الله له ولوالديه. ويلاحظ أنّ المؤلف قد ابتدع في البحر الكامل وزناً جديداً، فقد زاد تفعيلة خامسة على مجزوء الكامل ذي القافية المرفّلَةِ.

(50) الأبيات للمؤلف غفر الله له ولوالديه.

(51) الأبيات لفاروق جويدة.

(52) البيت لابن عبد ربّه الأندلسيّ.

(53) أبيات من ديوان (ريشة من جناح الذلّ) لحسن بن محمد الزهرانيّ في رثاء أمّه رحمها الله.

(54) عجز بيت للدكتور أحمد بن عثمان التويجريّ من قصيدة في رثاء أمّه رَحِمَهَا الله، وصدره:

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

ســـــتأتيه زَيْـــــنٌ للنـــــساءِ مليحـــــةٌ

(55) عجز بيت أَيْضاً للدكتور أحمد بن عثمان التويجريّ من قصيدته في رثاء أمّه رَحِمَهَا الله، وصدره:

ســـــــتأتيه أمٌّ للعفـــــــافِ كريمـــــــةٌ

(56) بيت أَيْضاً للدكتور أحمد بن عثمان التويجريّ من قصيدته في رثاء أمّه رَحِمَهَا الله.

(57) بيتان للدكتور صالح بن حمد المالك من قصيدة له في رثاء أمّه رَحِمَهَا الله.

(58) البيت لابن سنان الخفاجيّ، وعجزه لديه:

يعيـــــي البليـــــغ وإن خَبـــــرْتَ فَخَـــــبِّرِ

(59) عجز بيت للحطيئة، وصدره:

مـــــاذا تقـــــول لأفـــــراخ بـــــذي مـــــرخٍ

(60) بيتان للدكتور زاهر بن عوّاض الألمعيّ في رثاء والدته رحمها الله.

(61) بيتان لمحمد بن عبدالمطلب بن واصل.

(62) أبيات لأبي فراس الحمدانيّ.

(63) أبيات للشريف الرضيّ.

(64) البيتان لأبي الفتح البستيّ.

(65) بيتٌ مشهورٌ لأعرابيٍّ مغمورٍ.

(66) البيتان لأبي الفتح البستيّ.

(67) البيت لأبي فراس الحمدانيّ.

(68) عجز بيت لمحمد بن البعيث الربعيّ، وصدره:

سـأتلفُ المـال في عـسر وفي يَـسَرٍ

(69) بيت لَـمْ أعرف قائله، والبيت في (جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكريّ).

(70) البيت لمروان بن أبي حفصة.

(71) البيتان لإيليا أبي ماضي.

(72) البيت للبحتريّ.

(73) الأبيات للمؤلف غفر الله له ولأمّه وأبيه.

(74) الأبيات لجورج جورداق (بتصرّف).

(75) البيت للبحتريّ بتصرّف.

(76) البيت للدكتور إبراهيم ناجي.

(77) البيت للخنساء.

(78) الأبيات للدكتور أحمد بن عثمان التويجريّ في رثاء أمّه رَحِمَهَا الله.

(79) عجز بيت للواح، صدره:

ذئـابٌ عَلَيْهَـا مـلاحُ الثيـابِ

(80) البيت لأبي القاسم الداوديّ.

(81) البيت للشريف الرضيّ.

(82) البيتان لمحمد بن عبدالمطلب بن واصل في رثاء أمّه.

(83) الأبيات للأستاذ موسى بن محمد السليم في أمّه رَحِمَهَا الله.

(84) البيت لمحمود سامي البارودي.

(85) الأبيات للشيخ علي المبارك.

(86) البيتان للدكتور صالح بن حمد المالك في رثاء أمّه رَحِمَهَا الله.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

(87) البيتان لأحمد رامي غفر الله له.

(88) البيت لابن نباتة المصريّ.

(89) الأبيات للدكتور صالح بن حمد المالك في رثاء أمّه رَحِمَهَا الله.

(90) البيت للمؤلف غفر الله له ولوالديه.

(91) البيتان لابن حمديس الصقلّيّ.

(92) الأبيات للدكتور محمود السيّد الدُغيم في رثاء أمّه رَحِمَهَا الله.

(93) الأبيات لأبي فراس الحمدانيّ.

(94) أبيات من ديوان (ريشة من جناح الذلّ) لحسن بن محمد الزهرانيّ في رثاء أمّه رحمها الله.

(95) البيتان لصالح الشرنوبيّ (بتصرّف).

(96) توفي والدي – رحمه الله – ليلة الاثنين الموافقة 1/ 1/ 1387 هـ في الرس، بمنطقة القصيم.

(97) البيتان لأبي إسحاق الصابي.

(98) البيتان لمحمد بن عبدالمطلب بن واصل في رثاء أمّه.

(99) البيتان للمؤلف غفر الله له ولأبويه.

(100) عجز بيت لمحمد بن سكرة الهاشميّ، وصدره:

فقلت حالي بحالٍ من رثاءتها

(101) عجز بيت لابن غلبون الصوريّ، وصدره:

هم يحسدوني عَلَى موتي فوا أسفي

(102) صدر البيت لجرير، وعجزه للمؤلف غفر الله له ولأمّه وأبيه.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

(103) الأبيات لأعرابيّ لَمْ يبيّن اسمه في: (ذخائر البصائر لأبي حيّان التوحيديّ).

(104) عجز بيت لمحمد بن عبيدالله العتبيّ، وصدره:

فللـــــه مَـــــا أعطـــــى ولله مَـــــا جـــــرى

(105) البيتان ينسبان لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وليسا في ديوانه.

(106) البيت لضابئ البرجميّ.

(107) البيت لإبراهيم بن العبّاس الصوليّ.

(108) عجز بيت لمجنون ليلى، وصدره:

يـــــا ربّ لا تـــــسلبنّي حبّهـــــا أبـــــداً

(109) البيت لسالم بن غسّان اللوّاح.

(110) البيت لابن الروميّ في رثاء أمّه.

(111) البيتان لمحمد بن أميّة.

(112) البيت للأمير نجم الدولة أحمد بن أبي الفتوح.

(113) أبيات لشاعر يمنيّ مجهول.

(114) البيتان الأوّلان لشمس الدين محمد بن أحمد الكوفيّ، وباقي الأبيات للمؤلف.

(115) أبيات لخليل السكاكينيّ.

(116) الأبيات للشاعر محمد إقبال رحمه الله.

(117) من قول القاضي عبدالوهاب بن نصر الفقيه المالكيّ:

فقلـت لهـم كُفُّـوا المـلام فـإنما بجيرانهـا تغلـو الـديار وتـرخصُ

(118) عجز بيت للخنساء رحمها الله.

(119) الأبيات لجران العود النمريّ.

(120) البيت بلا نسبة في (المنتحل لأبي منصور الثعالبيّ).

(121) البيتان لحيدر بن سليمان الحلّيّ.

(122) الأبيات لعبدالله بن غانم الأنصاريّ المقدسيّ (بتصرّف شديد).

(123) البيت لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

(124) البيت للشريف الرضيّ.

(125) البيتان لابن الروميّ.

(126) .عجز بيت لأبي فراس الحمدانيّ، وصدره:

إذا الليـــل أضـــواني بـــسطتُ يـــد الهـــوى

(127) البيتان لفتح الله بن النحاس.

(128) عجز بيت للبحرانيّ، وصدره:

بـــتُّ ومـــا أعـــرفُ طيـــفَ الكـــرى

(129) عجز بيت لخالد الكاتب، وصدره:

رقـــــدتَ ولم تَـــــرْثِ للـــــساهرِ

(130) البيت للأبيرد بن المعذر الرياحيّ

(131) بيت لجارية مجهول اسمها.

(132) البيت لمحمود سامي البارودي.

(133) الأبيات للأمير نجم الدولة أحمد بن أبي الفتوح.

(134) البيت للمؤلف غفر الله له ولأمّه وأبيه.

(135) القصيدة للمؤلف غفر الله له ولأمّه وأبيه.

(136) البيت لابن زيدون الأندلسيّ.

(137) البيت لمعن بن أوس المزنيّ.

(138) البيت لأبي القاسم الشابي.

(139) البيت لمحمد بن عبيد الله العتبيّ الأمويّ.

(140) حرصتُ على استقصاء كلّ مَا كُتِبَ في الأمّهات شعراً ونثراً، وَلا سيّما مَا كان رثاءً، فاصطفيتُ من قصائد رثاء الأمّهات البيت والبيتين وبضعة الأبيات، فنضدتها درراً في مواضع من كتابي.

وحين نشر الأستاذ عبد العزيز جويدة هذه المقطوعة الرائعة في رثاء أمّه رحمها الله وجدتُ أنّ الاصطفاء منها قد يُفْسِدُهَا، فاستأذنته في نشرها كاملة في الكتاب؛ لأَنَّهَا عقد منضّدٌ ؛ كلّ جوهرة فيه لا تغني عنها أختها.

فهرس الموضوعات

الموضـــــــوع	الصفحة
إهداء	4
ما قبلَ الـمقدّمة	5-6
المقدّمة	7-18
وقفةٌ أمامَ الموتِ	19-24
الطريقُ إلى الموتِ	25-49
وَشَاخَ الطفلُ فَجْأةً	50-60
ألا مَنْ ذا لهُ أمٌّ كأمّي	61-79
ماذا فَقَدْتُ بـفَقْدِ أمّي	80-103
دمعةٌ عَلَى قبرِ أمّي	104-112
وأقْفَرَتْ إذْ خَلَتْ من أُمِّي الدارُ	113-126
عَبْرَةٌ من بَحْرِ دَمْعِي	127-138
رِسَالَةٌ إلى حَبـيْبَتِيْ	139-143
(أُمّي) لعبد العليم اليوسفي	144-145
(إلى أُمّي) لعبد العزيز جويدة	146-166
تخريج الأبيات الشعريّة	167-176

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً